ܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ

ܕܡܠܦܢܐ ܓܘܪܓܝܣ ܒܪ ܐܢܛܘܢ ܕܒܝܬ ܟܝܪܐܙ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܟܠ ܐܢܫ ܕܫܐܠ ܠܗ ܠܟܬܒܐ ܗܢܐ ܡܢ ܒܝܬ ܐܒ̈ܐ
ܐܘ ܦܣܩ ܡܢܗ ܡܕܡ ܢܗܘܐ ܡܫܬܐܠ ܒܝܬ ܕܝ̈ܢܐ
ܘܢܘܟܪܝܐ ܡܢ ܒ̈ܢܝ ܥܕܬܐ ܘܚܪܡܐ ܕܢܣܒ ܢܦܠ ܥܠ
ܠܝܬ ܠܗ ܫܒܩܐ ܥܠ ܕܝܗܒ ܗܘܐ ܠܗ ܫܒܩܐ ܒܝܬ
ܓܝܣܘܬܗ ܒܥܠܡܐ ܕܥܬܝܕ ܠܗ ܠܕܝܢܘܬܗ܀

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

هذه الابحاث ، في طقوس الاسرار، وضعت والقيت على كهنة ابرشية قبرس المارونية ، بناء على طلب سيادة المطران فرنسيس ايوب السامي الاحترام . وقد كان القصد منها العمل، الى جانب محاولات اخرى ، على بعث نهضة روحية تتيح للمؤمنين الخروج بايمانهم ودينهم من طور التقليد والعادة الى طور الوعي والعقيدة .

ولما كانت الاسرار اقرب ما يتناوله المؤمن من وسائل دينه واجدى ، كان من الواجب الا تفوته جدواها ، ومن المفيد ان ينفض عنها الغبار المتراكم عليها من جراء الممارسة الآلية او الهجران الطويل ، فتبدو جديدة نقية ، ويتوضح ، من خلال وشاح الطقس ، جمال التكوين وبهاء الحياة .

وقد شجع على نشر هذه الابحاث عدم وجود مثلها في اللغة العربية ، وتعذر الافادة من امثالها باللغات الاجنبية ، على غير ذوي الاختصاص ، وعدم انطباقه على طقوسنا بالتفصيل، كما اعتمدنا في وضعها ، من النهج العلمي ، لا الصيغة العويصة بل النتيجة الممحصة، كيلا يحول عسر الوسيلة دون بلوغ الغاية .

وان صح ما في الظن من اننا اليوم في مرحلة انتقال من الدين الموروث الى الدين المعتنق ، فلكم نتمنى ان توفق هذه المحاولة وغيرها الى ادراك بعض القصد، قبل ان تعصف الرياح بما تبقى لنا من تقاليد العبادة .

احد الفصح سنة ١٩٥٤

العماد

تكوين الرتبة

« ان لم يولد احد من الماء والروح ، فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله» (يوحنا٣ : ٥). هذه الآية هي الاساس في تكوين العماد المسيحي ، سواء فيه معناه الروحي او رتبته الطقسية . ومن هذه الآية تتضح ضرورة العماد للخلاص ، وعناصر فاعليته ، والرموز الكامنة فيه .

وان نحن تأملناها برهة ، عرفنا كيف انبثقت عنها رتبة العماد .

« ان لم يولد احد من الماء والروح فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله . »

ملكوت الله ، في النهاية ، هو السماء حيث يسعد الابرار بمشاهدة الله ، بعد الموت . ولكن لله ملكوتاً ، في هذه الحياة . وليس ملكوته ، على وجه الدنيا ، غير ملكوته الابدي . هـــذا الملكوت هو هو . ولكنه بعد الموت ، هو ملكوت البالغين الغاية ، الناعمين بالسعادة ، وهو ، في الحياة ، ملكوت الساعين الى الغاية ، المجاهدين في سبيل السعادة . ملكوت الله بعد الموت ، هو السماء ، وملكوت الله ، في الحياة ، هو الكنيسة .

فمن لا يولد من الماء والروح « لا يدخل ملكوت الله » ، اي لا يخلص ، لا يبلغ السماء اذا مات ، وفي هذه الدنيا يظل غريباً عن كنيسة المسيح . فالعماد اذن باب السماء وباب الكنيسة ، وهو باب السماء لانه باب الكنيسة . وذلك لان الكنيسة هي جماعة القديسين « المقدسين في المسيح يسوع المدعوين ليكونوا قديسين » (١ كور ١ : ٢) المقدسين بماء العماد ، والمدعوين الى الثبات في القداسة بنعمة الروح حتى الممات .

واذا كانت الكنيسة جماعة القديسين ، فلا بد للداخلين فيها من الاهتداء الى الله . والاهتداء الى الله ، كما يبدو لنا وصفه لاول مرة في حياة الكنيسة من سفر « الاعمال » (اعمال : ٢) يقوم على دعامتين : قبول كلام الله ، والتوبة . جاء في كتاب الاعمال ، بعد خطبة بطرس الاولى في الناس يوم الخمسين ، ان السامعين لما سمعوا نخسوا في قلوبهم وقالوا لبطرس ولسائر الرسل ماذا نصنع ايها الرجال الاخوة فقال لهم بطرس « توبوا وليعتمد كل واحد منكم باسم يسوع لمغفرة الخطايا فتنالوا موهبة الروح القدس ... فالذين قبلوا كلامه اعتمدوا ... » (اعمال : ٣٧—٤٢) .

من هنا يتبين لنا ان العماد يفترض اولاً : التعليم والايمان ، وثانياً : التوبة او « التخلص من الجيل المعوج » على حد تعبير الرسول عينه . ومتى تم هذا الاستعداد ، يمنح العماد « فالذين قبلوا كلامه اعتمدوا » .

والعماد هو هذه الولادة من الماء والروح التي ذكرها المسيح في

حديثه مع نيقوديموس . فله اذن وجهان ، وجه خارجي يُرى بعين الجسد ، وهو الغسل بالماء ، ووجه باطني لا يرى الا بعين الايمان وهو الحياة بالروح . والناحيتان مرتبطتان ، بقوة كلمة المسيح . فالحياة بالروح منوطة بغسل الماء ، وفقاً لوصية المسيح ، والماء الذي ليس له من طبعه الا ان يطهر الجسد ، له من كلام المسيح ، في العماد ، ان يطهر الروح ويحييها .

هذا هو الاساس الذي بنيت عليه رتبة العماد منذ اقدم العصور ، وفي كل الطقوس . ففي كل الطقوس ، ومهما كانت الشكليات التي احاطت بالجوهر ، وبرغم الزيادات او التشويه ، يمكننا ان نتبين في رتبة العماد الاقسام التالية :

١ – تحري نية طالب العماد

« ماذا تريد ؟ – ان اؤمن » سؤال اول لا بد منه ، ولا سيما اذا كان طالب العماد بالغاً . وفي الاجيال الاولى ، وقبل استقرار المجتمع المسيحي ، كان اغلب طلاب العماد بالغين . ومعلوم ان السر – اي سر – لا يمنح ما لم ينوِ قابله قبوله ، لان « من خلقك بدون ارادتك لا يخلصك بدون ارادتك » على حد قول اغوسطينوس . ولما كان العماد باب الكنيسة ، وكان للكنيسة شرعة ، هي انجيل المسيح ، تفرض على معتنقها واجبات والزامات جديدة ، علاوة على الواجبات الادبية الملتزم بها كل انسان ، لذلك كان لا بد من التأكد من ان طالب العماد راض بقبول العماد وما يتبعه من واجبات . ولكن هذا الامر ،

برغم اهميته، قد لا يبرز صراحة في كل الرتب ، لان وجوده مسلّم به ، باعتبار ان البالغ ، لو لم يكن قاصداً قبول السر وتحمل التبعة الناجمة عنه ، لما طلب العماد . اما كيف السبيل الى التثبت من هذه النية في عماد الاطفال ، فهذا ما سنجيب عنه في نهاية البحث .

٢ – الاقسام

كل انسان يولد بعيداً عن الله، من جراء المعصية الاولى . ومن كان بعيداً عن الله كان للشيطان عليه سلطان . وكما ان ملكوت الله هو جماعة الابرار ، المنقادين لدعوة الرَوح ، كذلك يمكن القول ان جماعة الخطأة ، المنقادين الى شهواتهم ، هم ملكوت ابليس ، يصغون الى وسوسته الخبيثة ، ويسيرون على طريقه ، حتى كأنه يسكن فيهم وكأنهم « مسكونون » . والروح الشرير يطرد بقوةالروح القدس . وكما ان المسيح كان ينتهر الارواح النجسة لتخرج من خلائق الله ، كذلك في العماد ، « يقسم » الكاهن ، باسم الله ، على الروح الشرير ليخرج من طالب العماد ، الذي خلق على صورة الله .

٣ – الكفر بالشيطان والايمان بالمسيح

ان طالب العماد جاء يطلب الانعتاق من نير الشيطان . واذا كان ، وهو بعيد عن الله ، يسترسل وراء شهواته ، ومنها شهوة الدنس ، وشهوة الشراهة والسكر ، وشهوة الكبرياء والظلم ، (وكلها شهوات كانت متفشية بين الوثنيين الذين انتشرت بينهم الكنيسة

الناشئة) فعليه ، وقد جاء يطلب العماد ، ان يعدل عن هذا السلوك السيء الاثيم ، عليه ان يغير مجرى حياته كافراً « بالشيطان وبابهته واعماله » . وهذا الكفر بالشيطان ، في رتبة العماد ، له مغزى هام : ان هو الا عهد يقطعه طالب العماد عــلى ذاته ، امام الله وامام الكنيسة ، بالارتداد الى الله ، وبتغيير مسلكه في الحياة ، وانه فيما بعد ، بنعمة الله ، لن يصغي الى وسوسة الشيطان ، ولن يسترسل وراء اعماله على اختلافها ، وهي الخطيئة ، بل يقصد ، ويعلن قصده ، ان يكفر بها .

هذه هي الناحية السلبية من العهد الذي يقطع على ذاته . اما الناحية الايجابية فهي الايمان بالمسيح وبانجيله : الايمان بالآب والابن والروح القدس ، الايمان بكل تفاصيله ، كما وردت في « قانون الايمان » اي في دستور الايمان الذي تعلمه ، وهو يتلوه علانية ، آخذاً على ذاته ان يتقيد به ولا يحيد عنه[1] .

---

١) لا بد من الاشارة الى ان العماد كان يهيأ ، في القديم ، بزمن تعليم . على باب الكنيسة كان يجتمع « الطالبون » او « المستمعون » الى الكاهن او بالاحرى الى الاسقف ، يصغون الى تعليمه ، طيلة الصوم الخمسيني ، وهو ، فيما كان يعلمهم قانون الايمان بالحرف ، كان في الوقت عينه يشرح لهم هذا القانون ، ولدينا ، في آثار الاباء ، اكثر من مثل عن هذه الشروح ، اشهرها التعاليم المنسوبة الى كيرلوس الاورشليمي ، والى تيودورس اسقف موبصيصطه -وهذه القيت بالسريانية- وفي نهاية الصوم كان الاسقف يفحص المستمعين ، فيتلون امامه قانون الايمان ، ويجيبون عن اسئلته . حتى اذا ما جاء يوم سبت النور احتفل بالعماد قبل قداس الفصح .

وهذا الكفر والايمان هما بمثابة القسم الذي يقسمه — في القديم كما في عهدنا الحاضر — كل من انتمى الى مجتمع منظم . انه يقسم بانه يعتنق مبدأ الحزب ، ويبقى له اميناً ، مهما كلفته هذه الامانة من تضحيات . وكذلك طالب العماد ، باقلاعه عن الوثنية ، واعتناقه دين المسيح ، يقسم بانه يكفر بالمبادىء الفاسدة التي كان يسير عليها ، ويعتنق مبدأً جديداً ، هو انجيل المسيح ، الموجز « بقانون الايمان » .

٤ — تبريك الماء

ان الاقسام التي ذكرت تتعلق بالاستعداد . اما الاقسام الآتية فهي تتعلق بالعماد بعينه . العماد هو غسل . والمسيح لم يبتدع الغسل ، حتى كرتبة دينية . فيوحنا المعمدان كان يعمد بالماء ، والفريسيون كانوا يغتسلون قبل الاكل ، وفي تاريخ الاديان شواهد اخرى عن الغسل بمعنى روحي . ولكن ما ابتدعه المسيح ، هو تعليق قوة الهية على الغسل بالمـــاء . وقد اتى ذلك بقوله لرسله : « عمدوا » . ولكن الماء ، المنوطة به هذه القوة الروحية ، لا بد له من تكريس ، والتكريس معناه « حبس العين » عن كل استعمال بشري ومنفعـــة بشرية ، وحصره باستعمال ديني لمنفعـــة روحية . وهذا شأن كل الاشياء المكرسة . واذا كان هذا شأن الاشياء المكرسة التي تستعمل «كاوان» في العبادة ، فباولى حجة يجب تكريس الماء الذي يستعمل لا «كاناء خارجي » بل كاناء حي يجري فيه فعل الروح القدس . اما كيف يكون التكريس فهو ما سنعود اليه .

٥ – العماد

المسيح اوصى رسله بان يعمدوا المؤمنين . ولا يظهر من نصوص الكتاب انه اوضح كيفية العماد . وعليه فالعماد قائم في الاساس وبصرف النظر عن الترتيبات القانونية التي سنتها الكنيسة بحق ، ما دام هناك غسل . وهذا الغسل افضل ما يكون بالتغطيس ، واسهل ما يكون بالصب ، وهو لا يزال قائماً حتى بالرش . وان قلت افضل ما يكون بالتغطيس ، فليس ذلك بالنسبة الى المفعول الروحي ، الذي يحصل كلما صح العماد باي طريقة كان ، بل بالنسبة الى المغزى والرمز . فبالعماد يتجدد الانسان . كان خاطئاً وسيغدو باراً ، كان يهتدي بوساوس الشيطان ، وسيهتدي بنور الايمان . وعليه ليس كحوض العماد رمزاً لهذا التجديد ، فيه يخلع طالب العماد الانسان العتيق ، بآثامه وامياله ، ويلبس المسيح ببرارته والوهيته ؛ اليه يدخل خليقة عتيقة جسدانية مظلمة ، ومنه يخرج خليقة جديدة روحانية نيرة . ولذلك شبه حوض العماد بقبر المسيح ، ودعي بحشاء الكنيسة .

وبديهي ان الغسل لا يفعل هذا المفعول ، ما لم يقترن بدعوة الثالوث الاقدس . ودعوة الثالوث اذ ذاك معناها ان طالب العماد يقف عمره وحياته على مشيئة الثالوث ، لها يكرس حياته وعليها يكيف مشيئته ، ومعناها ايضاً ان المعمد يغسل هذه الخليقة بقوة الثالوث لتتنقى من كل دنس وتحيا حياة روحية ، هي زرع ملكوت الله .

٦ – التثبيت والمناولة

بالعماد اصبح الطالب « مؤمناً » اي عضواً في الكنيسة ، ابناً لله ، (لان الكنيسة جماعة ابناء الله) ، فليس يعوقه شيء عن تعاطي الحياة المسيحية كاملة : عليه تجري ، من الان وما بعد ، شريعة الكنيسة بالزاماتها الخاصة ، وله ان يشترك في حياة جماعة المسيحيين ويتمتع بما يتمتعون به من نعم .

واول ما من حقه ان يتمتع به وما تمنحه اياه الكنيسة موهبة الروح القدس وجسد الرب . موهبة الروح القدس ، لان الحياة جهاد ولا بد له للقيام به من مواهب الروح . ولذلك ، وبما انه ليس قاصراً ، فهي تمنحه سر التثبيت الذي هو مسحة الجندي بالزيت قبل نزوله الى ساحة الحرب . وساحة الحرب ، بين ابناء الله وزبانية ابليس ، هي هذه الحياة . والجندي هو هذا المسيحي الذي اقسم في العماد الامانة لقائده المسيح . والزيت هو زيت الميرون المقدس الذي يشدد لا الاعضاء فحسب ، كالزيت الطبيعي الصرف ، بل يشدد عزائم الروح بقوة الله . من هنا ان التثبيت كان يمنح للبالغين على اثر العماد .

وبعد العماد والتثبيت يدخل المؤمن « الكنيسة » ، بيت الله ، ويختلط بالمؤمنين ، ابناء الله ، الكنيسة التي من لحم ودم ، ويتقدم الى مائدة البيت فيتناول خبز الابناء ، جسد الرب ، قوتاً لنفسه .

وبهذه الاسرار الثلاثة كانت تتم ، في الاجيال الاولى للمسيحية رتبة « التنصير » او الاهتداء .

وبما ان العماد عهد للحياة ومـــا بعد الحياة من قبل الطالب ، وتكريس دائم من قبل الكنيسة باسم الله ، لذلك لا يعمد الانسان الا مرة واحدة ، لانه بالعماد يوسم وسم ابناء الله الى الابد .

ان الفرق بين هذه الرتبة الاولى والرتب التى نقوم بها اليوم على نوعين : فرق اول متأت عن ان العماد لم يعد يقتصر على البالغين بل رأت الكنيسة ضرورة منحه للاطفال ، والفرق الثاني متأت عن تنظيم الطقس تنظيماً احتفالياً لا يقتصر فقط علي الاعمال الضرورية بل يتضمن صلوات وحركات من شأنها ان تحيط العمل الاساسي بهالة من التقوى والرموز الروحية . ولا بد لنا من ان نضيف كلمة عن النقطة الاولى على ان نرجيء الكلام عن النقطة الثانية الى البحث المقبل .

يوم كانت المسيحية لم تنتشر بعد ولم تتأصل في المجتمع بحيث تورث اباً عن جد ، كان من الطبيعي ان يوجه الوعظ الى البالغين وان تنظم الرتب نسبة الى البالغين . ولكن عندما تأصلت المسيحية في المجتمع وتمكن الايمان في النفوس والاوضاع ، او لا يقضي الواجب على الوالدين والكنيسة ، وهم القيمون عـــلى مصالح القاصرين ايا كانت ، ان يضمنوا لهؤلاء القاصرين خيرهم لا المادي فحسب بل الروحي ايضاً ؟

ليس من المحبة الوالدية في شيء ، بل ليس من العدل في شيء ، ان يحرم الطفل نعمة الله لانه عاجز عن التماسها . ليس من العدل في شيء ان تبقى خليقة الله المدعوة الى ان تحيا حياته ، اسيرة في قبضة

الشيطان . ولذلك اقتضى دفع خطر الهلاك عن الاطفال ، وتأمين حياتهم الروحية ان يعمدوا ، وهم بعد اطفال ، على مسؤولية الكنيسة ومسؤولية والديهم او من ينتدبهم هؤلاء اوصياء روحيين عليهم ، وهم « العرابون » .

من هنا ان كل الاعمال التي كانت تفرض عـــلى البالغ اخذ يقوم بها العراب باسم القاصر — كما ان الوصي يقوم بكل عمل قانوني لحماية حق القاصر متحملاً التبعـــة باسمه . ولذلك فالعراب ، باسم الطفل ، يكفر بالشيطان ، وباسمه يتلوَ قانون الايمان ، وهو يتناوله من حوض العماد وكأني به ، في كنيسة الله ، يأخذ هذا القاصر بيده ، ويدربه على المشي حتى يكبر ويبلغ .

وبما انه باسمه كفر بالشيطان وباسمه تلا قانون الايمان فعليه تقع مسؤولية السهر على تربيته الروحية بحيث يكفر بالشيطان فعلاً عندما يدرك وبحيث يتعلم التعليم المسيحي الذي اجاب عنه باسمه .

هذه هي العناصر التي تكونت منها رتبة العماد ، وسنرى ، في البحث المقبل ، كيف نشأت رتبة العماد الاحتفالية ، التي نمارسها اليوم ، عن هذه المقومات الاساسية ، حتى اذا ما اتضحت لنـــا الرتبة بمعناها الاصيل قمنا بها ودربنا شعبنا على الاشتراك فيها عن وعي وايمان ، كما يقام بعمل تأسيسي في الحياة ، لا كما يقام بمعاملة خارجية لا مبرر لها سوى العادة والكبرياء العالمي .

تنظيم الرتبة

ان الاعمال الاساسية التي بنيت عليها رتبة العماد ، هي تحرّي نية الطالب ، والاقسام ، والكفر بالشيطان ثم الاعتراف بالايمان . هذا في ما يتعلق بالاعمال الاستعدادية . اما الاعمال التي يقوم بها العماد فهي تبريك الماء ، ومنح العماد ثم تثبيت المعمَّد بالزيت المقدس ومناولته جسد الرب .

وعلينا ، في هذا البحث ، ان نرى كيف انبثقت عن الاعمال المذكورة الرتبة المتبعة اليوم في طقسنا الماروني . ومن تصفح كتاب توزيع الاسرار يتضح لنا ان حفلة العماد تتألف من : ١ – الصلوات السابقة للمعمودية . ٢ – الصلوات للموعوظين والاقسام . ٣– نافور تكريس الماء . ٤ – طقس العماد وما اليه .

وقبل الدخول في التفاصيل ، لا بد من الاشارة الى قاعدة عامة ، تجري عليها حفلات منح الاسرار ، وهي ان كل حفلة تتركب من رتبة اولى استعدادية ، تليها رتبة تكريس مادة السر او شارته ، وفي النهاية تأتي رتبة منح السر . وعـلى هذه القاعدة نظمت حفلة منح العماد ، التي نراهـا تبدأ بالفرض السابق للعماد ، ثم نافور تكريس الماء ، ثم منح العماد . وربما تداخل بعض هذه الرتب في البعض الآخر ، او زيد على الترتيب العام بعض صلوات واعمال تقتضيها طبيعة السر الممنوح .

١ – الفرض السابق للعماد

ان رتبة العماد تبدأ بصلاة استعدادية ، مرتبــة ترتيب صلاة « الفرض » او صلاة « الخورس » . ومعلوم ان صلاة الفرض ، المبنية على ترتيب « قداس الموعوظين » تتكون من جزئين هامين : ١ – صلاة الغفران او الحساي التي ترافقها تقدمة البخور ، ٢ – القراءات واهمها قراءة مقطعين : احدهمــا من رسائل بولس الرسول ، والآخر من الانجيل . وكل من هذين الجزئين يحيط به صلوات واعمال يفرضها الترتيب الطقسي .

وان نحن تتبعنا سير هذا الفرض ، لحظنا انه يتألف ، على مثال كل صلاة كاملة ، وان مخففة من الزيادات التي تقتضيها الاحتفالات الخارقة ، من الاجزاء التالية :

١ – « المجدلة » وهي تمجيد الثالوث وبها تبدأ جميع الصلوات الرسمية .

٢ – « الفاتحة » وهي صلاة بها يلتمس المحتفل نعمة حسن القيام بالرتبة .

وفي رتبة العماد ، يطلب الكاهن حسن القيام برتبة العماد ، الذي تمنحه الكنيسة ، استناداً الى وصية المسيح .

٣ – « المزمور » : يختلف هذا المزمور باختلاف « ساعات » الفرض . والمزامير الجاري استعمالها ، في مثل هذا الظرف ، هي اما « المجد لله في العلاء » وهو مزمور « بيعي » اي موضوع في الكنيسة

على مثال مزامير العهد القديم ، واما مزمور « ارحمني يا الله » ، او مزمور آخر . ولما كانت التوبة من الاستعدادات المفروضة لقبول سر العماد ، كان من المناسب اختيار مزمور « ارحمني يا الله » ، وهو اشهر مزامير التوبة ، لتلاوته في الرتبة الاستعدادية للعماد[1] .

٤ — « الحساي » او صلاة الغفران : وهي الصلاة الهامة في الرتبة ، وترافقهـا تقدمة البخور . وصلاة « الحساي » تتألف من مقدمة «فروميون» ومن متن « سدر » — في المقدمة نطلب ان نكون اهلاً برفع المديح ، اما المتن ففيه قسمان : قسم اول : مديح ، وهو يرتكز عادة الى الكتاب المقدس وما ورد فيه عن السر ، وقسم ثان : طلب ، وهو يلتمس من الله نعمة السر . اما تقدمة البخور فتجري كالعادة ، بتبخير الصليب والمذبح والشعب ، يزاد عليها في كل سر ، تبخير « الاواني » التي تستعمل في منح السر ، وهي ، هنا ، حوض العماد .

٥ — «الفتح» وهو نشيد يلي الحساي وبمعناها .

٦ — « العطر » وهي صلاة يشار فيها الى النية التي من اجلها تقدم البخور ، ولذلك سميت صلاة « العطر » اي البخور .

٧ — « المزمور » وهو ليس مزموراً كاملاً ، كما في بدء الرتبة ، بل آيات من الكتاب ، او على منوالها ، توافق المقام ، وتنشد كمقدمة للقراءات .

---

١) في صلاة الخورس الاحتفالية تنشد هنا « المطالع » الملحنة ، على جوقين ، وقد استغني عنها في فروض الاسرار ، دفعاً للتطويل .

٨ — قراءة « الرسالة » : وهي في رتبة العماد فصل من رسالة بولس الى طيطوس به يشير الرسول الى النعمة التي منحنا الله اذ « احيانا بغسل الميلاد الثاني » .

٩— قراءة « الانجيل » : بعد المقدمات يتلى، من يوحنا، الفصل الثالث ، وهو اهم تعليم للمسيح في العماد .

٢ – الصلوات على الموعوظين مع الاقسام

اشرنا في البحث السابق الى اهمية هذا القسم، ومعناه الروحي ، وهو يتضمن الاقسام لطرد الشيطان ، المستولي ، بالخطيئة ، على طالب العماد، باسم الله القوي الجبار، ثم الكفر بالشيطان والاعتراف بالايمان ، وهما بمثابة عهد يقطعه طالب العماد على ذاته ، بتغيير مسلك حياته .

اما الاجزاء التي يتألف منها هذا القسم فهي :

١ — «الكرازة» . يتلوها «الشماس» بصوت عال، ومن المفترض ان يجيب عليها الشعب «استجب يا رب» ، وبها نذكّر الرب، ان جاز التعبير ، بما من شأنه ان يستميله الى استجابتنا، وهو ، هنا ، رسمه العماد ، وتقديسه المياه ، ووعده من يعتمد بالحياة .

٢ — لحن « فشيطو » وهو نشيد « بسيط » اللحن ، ينشد عندما تفرض الرتبة الانتقال في الكنيسة من محل الى محل. وعلى اللحن عينه ينشد نشيد نقل القرابين ، في القداس .

٣ — « الاقسام » ، وقد سبق الكلام عليها ، ولا تستغربن كثرة

عددها ، في العصور الاولى ، لم تكن تجري دفعة واحدة ، وفي يوم واحد ، بل كان الاسقف يقسم على طالبي العماد كلما مثلوا امامه ، لسماع التعليم المسيحي .

٤ – « الكفر بالشيطان والايمان بالمسيح » . قد سبقت الاشارة اليهما كذلك ، وحسبنا الان ان نلفت النظر الى ان الكفر بالشيطان يجري ووجه طالب العماد الى الغرب ، اما الاعتراف بالايمان فيجري ووجه طالب العماد الى الشرق . وهذه الحركة قديمة جداً في الطقس ، ورمزها واضح ، وهو ان جهة الغرب ، وهي جهة الظلمة ، ترمز الى الشيطان ، اما جهة الشرق ، وهي جهة النور ، فترمز الى المسيح . وبعد الاسئلة عن الايمان ، يُتلى « قانون الايمان »[1] ثم يختم هذا القسم بصلاة شكر .

٣ – نافور تكريس الماء

الماء من طبعه يطهر الجسد لا النفس . وان نحن آمنا بانه ، في العماد ، يطهر النفس ، فذلك بقوة الروح القدس ، الذي يحل فيه (وان لم يكن حلولا جوهرياً) . وعليه فينبغي تكريس الماء . ورتبة تكريس الماء سميت « نافور » لانها اشبه شيء برتبة تكريس الخبز والخمر في القداس ، وان نحن قابلنا بين الرتبتين لم نجد فرقاً سوى وجود رواية العشاء في القداس ، وعدم وجودها في تكريس الماء .

---

١) لا حاجة الى الاشارة الى انه يحسن بالشعب كله ان يتلو قانون الايمان .

والسبب اوضح من ان يذكر . امـــا الباقي فهو هو ، مع مراعاة اختلاف السر .

وقبل الدخول في التفصيل ينبغي الاشارة الى ان الاشخاص الذين يقومون بالرتبة هم ثلاثة : الكاهن والشماس والشعب . الكاهن يتمم السر والشعب يشترك في السر بالصلاة ، والشماس هو الصلة بين الطرفين . ولما كان تتميم السر يفرض على الكاهن القيام ببعض اعمال « خفية » او تلاوة بعض صلوات « سرية » ، هي هذه التي ينسب اليها بنوع خاص مفعول التقديس ، كان على الشماس ان يعاون الشعب في الصلاة ، ريثما يكون الكاهن قد انتهى من الصلاة السرية. من هنا « الكرازات » المتعددة التي يتلوها الشماس بصوت عال ، كلما انصرف الكاهن الى عمل خفي او صلاة سرية . (وقد اثبتت هذه الكرازات في رتبة تكريس الماء دفعة واحدة) .

اما اجزاء رتبة تكريس الماء الهامة فهي ، عـــلى منوال نافور تكريس الخبز والخمر ، هذه التالية :

١ — البركة الافتتاحية : « ليكن امان الله ... »

٢ — ذكر حياة المسيح الخلاصية التي لا تقديس الا بها ،

٣ — صلاة الشكر ،

بفاتحتها : « الى الاعالي قلوبنا ... » ، ومتنها : « الشكر » ، وخاتمتها : « قدوس » .

٤ — صلاة التكريس وهي مؤلفـــة من صلاتين سريتين يليهما اعلان ، الاولى : توسل مع ذكر عماد المسيح ، الذي يرمز الى تقديس

مياه العماد (وهو يقابل رواية العشاء السري في القداس) . الثانية : دعوة الروح على المياه « ليحل فيهـــا ويقدسها ، فتلد عوض آدم الترابي آدماً سماوياً »[١] .

٥ ـ المزج : يمزج الميرون المقدس بماء العماد ، وهي حركة تشبه بعباراتها ومحلها ، حركة مزج الجسد بالدم ، في القداس ، عند « آمنا ونكسر » (وهو محلها الاصلي) .

٦ ـ الصلاة الربية ، مع مقدمتها .

وبذلك تنتهي رتبة تكريس الماء ، الذي اصبح قابلاً لان يستعمل كآلة يجري فيها فعل الروح القدس .

٤ ـ العماد

بعد السلام وحني الرأس ، يمسح الطفل بزيت العماد ، وهو بمثابة فاتحة للعماد ، ثم يعمد ، « باسم الآب والابن والروح القدس ... »

وبعد ان ينتهي الكاهن من التعميد ، يتناول الطفل عرابه ، ثم يوشحه الكاهن بوشاح ابيض .

ان كتاب توزيع الاسرار قد اثبت صيغتي العماد القديمة والحديثة . القديمة بالتغطيس وتلاوة الصورة بشخص الغائب : « يعمد فلان ... » والحديثة بالصب وبشخص المتكلم : « انا اعمدك ... »

واثبت ايضاً وفقاً للاستعمال القديم ، رتبة تبريك زيت العماد ،

---

١) هنا تتلى في القداس الطلبات المختلفة ، لان ذبيحة المسيح هي ينبوع كل نعمة ، وليس كذلك العماد .

ورتبة التثبيت . ورتبة المناولة .

ولكن قرار المجمع المقدس، المثبت في بدء الكتاب، امر بالبقاء على شريعة المجمع اللبناني في هذا الموضوع ، التي تنص على حفظ تبريك الزيت لغبطة السيد البطريرك، وحفظ منح التثبيت للاساقفة . وعدم مناولة الاطفال جسد الرب[1] .

بعد العماد ووضع الوشاح الابيض، (وهو الثوب النقي الذي كان يرتديه المعمد عند خروجه من حوض العماد ، والذي يرمز الى نقاوة نفسه وتجديدها ،) يعودون من المعمودية الى المذبح .

وهذه العودة تصير باحتفال ، وهي في الاصل ادخال المؤمن الجديد الى الكنيسة، بما ان العماد كان يتم خارج الكنيسة . ولا عجب ان يحتفل بهذا الدخول احتفالاً كبيراً : يتقدم المؤمن الكاهن ، وهو يبخر ، ويرافقه المؤمنون حاملين الشموع ، مرتلين الاناشيد ، وفي الوقت عينه يقرع الجرس، ايذاناً بالفرحة : فرحة ولادة مولود جديد، في كنيسة الله . ويقودون المؤمن الجديد الى مائدة الخلاص ، ولو كان بالغاً لتناول جسد الرب . ثم يتلو عليه الكاهن صلاة الختام .

* * *

بعد هذا العرض يحسن بنا ان نستخلص بعض النتائج .

---

١) يجب الانتباه الى التقيد بهذه الرسوم ، عند ايلاء السر . وقليل من الانتباه والممارسة يحمي من الخطأ ، لان نصوص هذه الرتب القديمة ، وان كانت قد اثبتت في الكتاب ، فهي قد فصلت عن سائر اجزاء الرتبة بخطين على عرض الصفحة ، قبل ، وبعد .

١ – ان معنى الرتبة لا يظهر ما لم نحسن القيام بها . وحسن القيام بها يفترض اننا قد فهمنا معنى كل حركة بذاتها وتتابع الحركات وتماسكها .

وهذا المعنى من الصعب ان يظهر في الرتب المختصرة . التي يكتفى فيها بالاجزاء الجوهرية . فرتبة تكريس الماء المختصرة . وان جاز استعمالها لضيق الوقت ، ليست متناسقة تناسق الرتبة الكاملة .

ولدينا اليوم رتبة عماد . مصوغة بالصيغة الاصلية . التي فيها من سمو التعبير الروحاني وغناه ما تفتقر اليه كثير من الرتب .

٢ – ان رتبة العماد رتبة مقدسة ، وقيامنا بها يفرض علينا اتقاناً وخشوعاً لا يقل عن الاتقان والخشوع الذي نحرص عليه عندما نقوم برتبة القداس .

– الاتقان في تلاوة النص . بلفظ واضح وتتابع معقول . وقلة العادة تساعد على ذلك، لان العادة ، في الغالب ، تطغى على العقل.

– الاتقان في الحركات ، بحيث لا ننتظر ساعة القيام بالرتبة لقراءة « الروبريكة » .

– الخشوع وهو منبثق من روح الايمان ومن فهم ما نتلوه من نصوص وما نقوم به من حركات .

٣ – متى فهمنا معنى الرتبة واتقنا القيام بها ، اصبح من السهل علينا ان نلفت نظر الشعب . بكلمة نلقيها عليه . قبل مباشرة الرتبة ، او بعد الانجيل ، الى معنى الرتبة . حتى يشترك فيها هو ايضاً .

وكما اننا نسعى ليكون في الرعية جوق يعاونا في القداس ، فلمَ لا نعلم هذا الجوق ، اذا توفقنا في تأليفـــه ، الاناشيد التي تنشد في العماد ، ولمَ لا نمرنه على ان يجيب الاجوبة المختصة بالشعب .

ومتى سنحت الفرصة ، ولاءم الظرف ، وبعد تهيئة الحفلة بكل دقة ، لِمَ لا نجرب ان نحتفل برتبـــة العماد امام الرعية مجتمعة . اذا كانت رعيتنا « رعية » حقاً ، اي مرتبطة برباط الاخوة كالعيلة ، فانها لاتستثقل الامر . ويلوح لي انه ليس بالصعب في رعايا الجبل ، حيث لا تزال روح العيلة رابطة افراد الرعية . وقد كان للتجربة وقع حسن . وكما ان الرعية تجتمع لتودع من توفاه الله من اعضائها ، فلمَ لا تجتمع لتستقبل العضو الجديد الذي منّ الله به عليها ؟

وقصارى القول ان القضية قضية محاربة الفتور وطغيان العادة . محاربة الفتور فينا ، لنعي ما نعمل ، ونؤمن بما نعمل ، ونحسن القيام بما نعمل . ومحاربة الفتور في رعيتنا ، فلا نتخذ من اهمالها وجهلها وثنيتها قاعدة لعملنا ، بل نحاول بدراية وفطنة واناءة روحية نفض غبار الاهمال عنها ، وتبديد جهلها بنور الايمان ، ومكافحة وثنيتها بالفضيلة . وان نحن قمنـــا بهذا كله ، حق لنا ان نأمل ان الله لن يبخل علينا بالباقي ، اي بان يكون الثمر على قدر الجهد .

التثبيت

ورد في « اعمال الرسل » ان الرسل ، لما سمعوا « ان اهل السامرة قد قبلوا كلمة الله ، ارسلوا اليهم بطرس و يوحنا ، فانحدرا وصليا من اجلهم لكي ينالوا الروح القدس ، لانه لم يكن قد حل على احد منهم ، سوى انهم كانوا اعتمدوا باسم الرب يسوع ، فوضعا حينئذ ايديهما عليهم فنالوا الروح القدس » (اعمال ٨ : ١٤—١٨) .

من هذا النص ، ودون ما حاجة الى الدخول في دقائق التفسير، نستخلص :

— ان اهل السامرة كانوا قد آمنوا بالمسيح ، وهذا ما تعنيه عبارة « قبلوا كلمة الله » .

— وانهم كانوا قد اعتمدوا ، وهذا ما تعنيه عبارة « اعتمدوا باسم الرب يسوع » ، التي لا يقصد منها التعبير عن عماد خاص ضاع اثره ، بل التعبير عن العماد المسيحي « باسم الثالوث الاقدس » . وقد اطلق عليه احياناً ، في العهد الجديد ، اسم العماد « باسم الرب يسوع » تمييزاً له عن معمودية يوحنا .

— وانهم لم يكن قد حل عليهم بعد الروح القدس ، وبديهي ان المقصود هنا « بحلول الروح القدس » ليس قبول نعمة التبني او

الميلاد الجديد، لانهم كانوا قد نالوها بالعماد؛ بل قبول نعمة خاصة، نعمة «التثبيت» في الايمان، نعمة الشهادة للانجيل، تلك النعمة عينها التي نالها الرسل بحلول الروح القدس عليهم في اليوم الخمسين (اعمال ٢).

— وانهم لم ينالوا نعمة التثبيت هذه. على يد فيلبوس، الذي عمدهم، وهو غير الرسول، بل اقتضى ان يوفد اليهم الرسل اثنين منهم، هما بطرس ويوحنا، ليمنحاهم اياها.

— وانهم اخيراً نالوا نعمة التثبيت هذه بصلاة الرسل من اجلهم ووضع يدهم عليهم.

بهذه النقط التي استخلصناها من نص سفر الاعمال، يلخص تعليم الكنيسة في سر التثبيت. فالتثبيت سر يمنحه المعمّدون تتميماً للعماد. فهم ينالون بالعماد نعمة الايمان، نعمة التبني، وبالتثبيت ينالون نعمة «التثبيت» في الايمان ونعمة «البلوغ» في حياة ابناء الله، نعمة الشهادة للانجيل.

والتثبيت سر لا يمنحه في الاصل غير الرسل وخلفاؤهم، ولا يمنحه من الكهنة الا من خوّل ذلك بترتيب خاص من قبل الشرع او من قبل الرئيس الصالح.

والتثبيت كان يمنح عهد الرسل بالصلاة ووضع اليد، وهو يمنح اليوم، بناء على تدبير الكنيسة[1]، بالصلاة والمسح بالميرون. والميرون

---

١) للكنيسة ملء السلطان على طقوس الاسرار، ترتبها وفقاً لمقتضيات

هو الزيت المكرس ، الذي يرمز الى قوة الروح القدس ، والذي يمسح به المؤمنون ، قبل خوضهم معترك الحياة ، كما كان يمسح بالزيت المقاتلون قبل نزولهم الى ساحة القتال .

وسر التثبيت ، كسر العماد ، لا يمنح الا مرة في الحيـــاة ، لان المؤمن انما يختم بختم الروح القدس مرة واحدة الى الابد .

وليس في العهد الجديد اشارة صريحة الى ان المسيح وضع هذا السر بالتفصيل ، ولكن الكنيسة لا تشك في ان المسيح رسمه وهي تعتبر الامر مضموناً في مسلك الرسل ، الذين ما اعتقدوا يوماً انهم غير « خدام المسيح ووكلاء اسرار الله » (١ كور ٤ : ١) .

*

عن هذا الايمان انبثقت رتبة التثبيت . ولم تكن في القديم مفصولة عن رتبة العماد ، لان الرتبة القديمة وضعت للبالغين . والبالغ ، اذا ما عمّد ، ليس ما يدعو الى ارجاء تثبيته ، ولا الى ارجاء تغذيته بجسد الرب ، لانه بحاجة الى هذه النعم جميعها . وعلى الرتبة القديمة حافظ طقس الروم ، الذين ما زالوا ، حتى اليوم ، يعمّدون ويثبتون — والارثوذكس « يناولون » — الاطفال انفسهم ، في وقت معاً.

ولكن الكنيسة الغربية ، ومن جاراها من الطوائف الشرقية ، رأت ، بعد ان عم عماد الاطفال ، ان ترجىء تثبيتهم الى سن الرشد ، شرط ان يقبلوا هذا السر وهم ابرار ، كما لو كانوا خارجين من حوض العماد.

الزمان والمكان ، توفيراً لفائدة المؤمنين ولحرمة السرّ ، مع المحافظة على سلامة الجوهر . (المجمع التريدنتيني ، الجلسة ٢١ ، ٢) .

وفي هذا التدبير كل الحكمة ، لان المؤمن يحتاج الى نعمة التثبيت ، عندما يصبح قابلاً لتحمل المسؤولية . وليس بقابل تحمّل اي مسؤولية قبل بلوغه سن الرشد .

اما رتبة التثبيت الحالية في طقسنا الماروني فمبنية ، على نحو رتبة العماد ، من قسمين : قسم استعدادي ، وقسم جوهري .

فالقسم الاستعدادي يقوم بتلاوة « فرض التثبيت » وهو منظم عين التنظيم ، الذي اشرنا اليه في رتبة العماد ، اي تنظيم صلاة الخورس. ولا حاجة الى اعادة التفصيل ، على اننا نكتفي بالاشارة الى ان صلاة الغفران او « الحساي » تذكر بحلول الروح على الرسل ، وان القراءة الاولى اختيرت من اعمال الرسل ، الفصل الثامن ، وهو النص الذي يروي تثبيت اهل السامرة ، وان الانجيل يذكر بنزول الروح القدس على المسيح على اثر عماده .

على ان العادة الجارية بمنح السر بعد القداس قضت بالاستغناء عن القسم الاستعدادي ، دفعاً للتطويل ، ولكنه قسم يجب الاحتفاظ به ، اذا منح السر في حفلة خاصة ، وهو خير وسيلة لتفهم معنى السر وتهيئة القلب لقبول نعمته .

وفي رتبة التثبيت استغني ايضاً عن تبريك مادة السر ، لان هذه المادة وهي الميرون المقدس ، يباركها ، بموجب الرسوم القانونية ، غبطة السيد البطريرك ، وتوزع على الكنائس كل سنة .

وفي تنظيم الرتبة العام يبقى ما يختص بمنح السر ، وهو القسم الذي

يكتفى به عادة. وهذا القسم مؤلف من نشيد يلمح الى عظمة سلطان الكهنوت ، الذي تخضع له قوة الروح ، ومن صلاة يتلوها الاسقف باسطاً يده ، ولعل في ذلك اثراً لمنح السر بوضع اليد ، ثم ايلاء السر بوسم الطالب في جبهته بالميرون المقدس وتلاوة الصورة التي تتضمن الالفاظ القديمة العهد : « طابع وملء نعمة الروح القدس » .

وعلى اثر التثبيت يعلن الاسقف حقيقة مفعول السر في من قبله : « ها قد لبستم . . . » ثم يمنح المثبتين بركته ، عربوناً لثباتهم في نعمة السر .

وغني عن البيان ان الرتبة تقضي بان يكون للمثبت عرّاب ، له الوظيفة عينها ، وعليه التبعة عينها ، اللتان للعراب في العماد .

هذا مجمل رتبة التثبيت . اما الطريقة الجارية في قبوله ، فلا بد من الاعتراف بانها ليست افضل طريقة للتأهب له والاستفادة منه . واست اقصد التنديد بالتقصير بقدر ما اقصد الترغيب في الاصلاح .

١ – يحسن بنا ، وقد رأت الكنيسة ان يرجأ التثبيت الى سن الرشد ، ان لا ندع اولاد رعايانا يحرمونه ، بعد هذه السن ، باهمالنا .

٢ – يحسن بنا ، في هذا الباب كما في غيره ، ان نعمل على تلافي الارتجال الذي هو آفة طقوسنا . تعيين العراب مرتجل ، ودعوة الاولاد الى قبول السر مرتجلة ، والحفلة ذاتها مرتجلة . فكيف يدرك العراب واجبه وكيف يفهم الاولاد معنى السر ويستفيدون منه ، وكيف تتم الحفلة بترتيب وخشوع ، اذا كانت هذه الامور مرتجلة . ينبغي ان

يعين العراب قبل الحفلة ، ليتهيأ للقيام بوظيفته بالتوبة ، وينبغي ان تدوّن اسماء الاولاد قبل الحفلة ، ليس لتسهيل تسجيلها وضبطه فحسب ، بل لتلقى عليهم الارشادات ويعرفوا ما يجب ان يعرفوه من التعليم المسيحي ، ويستعيد البالغون منهم برارة القلب بالاعتراف . وينبغي ان تهيأ اواني الحفلة قبل الحفلة حتى لا تزداد البلبلة بالتفتيش عن القطن وعن المنشفة وعن سائر الاواني .

٣ — يحسن بنا ان نجعل منح التثبيت من الحفلات التي تشترك فيها الرعية بكاملها . « المناولة الاولى » عيد في الرعية ، ومن المستحسن ان تكون عيداً لا للاولاد وحدهم بل للعيال ايضاً ، فلِمَ لا يكون كذلك في التثبيت وعناصر الاحتفال متوفرة كلها . فحلول الروح ليس باقل اهمية من قبول جسد الرب ، وهو لا ينال الا مرة واحدة ، والتثبيت اول سر يقبله الولد راشداً ، والتثبيت يمنح في قداس احتفالي يقوم به راعي الابرشية . او ليس من المؤسف ان تكون الكنيسة حافلة بالناس ، وقت القداس ، وان لا يبقى فيها ، وقت التثبيت ، الا الملتزمون بالبقاء من قبل الوظيفة ؟

ولكن ذلك كله لن يتم الا بمقدار العناية التي نبذلها في تهيئة يوم التثبيت . والرعية التي يسهر راعيها على جميع افرادها ، والتي يمهد لاستقبال راعي الابرشية فيها لا بتهيئة الفطور والزينة فحسب ، بل برياضة للاولاد وبتناول عمومي للجميع وبجوقة للترتيل وخدمة الخورس لن يمر فيها يوم التثبيت دون ان يطبع في القلوب ذكراً طيباً كما يطبع الروح في النفوس وسماً لا يمحى .

الاوخارستيا

نكوبه الفداس

على عهد الرسل

ان العشاء الذي تناوله المعلم مع تلاميذه ، ليلة آلامه ، كان خاتمة عهد ، وفاتحة عهد . خاتمة العهد القديم ، عهد الانتظار والرجاء ، وفاتحة العهد الجديد ، عهد الحقيقة والايمان . وقد كان ذلك ، لانه اللقاء الاخير ، بين ابن الله والبشر ، في الجسد الفاني . والمسيح كان يتوق الى هذا اللقاء : « شهوة اشتهيت ، ان آكل معكم هذا الفصح ، قبل آلامي ، هذا الفصح الذي لن آكله حتى يتم في ملكوت الله » (لوقا ٢٢ : ١٥ـ١٦) لانه خاتمة الوعد ، وفاتحة التمام .

اجتمع المسيح اذن الى تلاميذه ، ليلة آلامه ، واكل معهم الفصح ، الفصح العتيق ، على عادة اليهود . واليهود ، في فصحهم ، كانوا يشكرون الله على آلائه نحو البشر ، ويخصون بالذكر خروجهم من مصر ، ثم يأكلون خروف الفصح ، كما امرهم الله ، تجديداً لذكرى عبورهم من ارض مصر الى ارض الميعاد . وفي تلك الليلة ، على منوالهم نسج المسيح ، فشكر وبارك ، ثم ذبح نفسه ، حملاً طاهراً ،

مرضاة لله ، ومغفرة للبشر ، فيتناولونه ويعبرون بواسطته من ارض الموت الى ارض الحياة ، وذلك سحابة العمر ، حتى يوم مجيئه . ثم اوصى رسله ان يفعلوا ما فعل لذكره .

وبناء على وصية المعلم ، اجتمع الرسل بعد موته وقيـامته ، وجددوا ما فعل بينهم ، في العشاء الاخير . وكسروا الخبز ، على نحو ما كسر ، واكلوا ، وشربوا كذلك من الكأس ، كأس العهد الجديد . وتراءى لهم الرب اكثر من مرة ، وهم جالسون الى طعام ، فرسخ في قلوبهم الايمان بحضوره ، في الخبز الذي يكسرون ، على نحو ما كسر .

ولم يجتمع الرسل ، على هذا النحو ، مرة ، صدفة ، بل كثيراً ما اجتمعوا . ولم يتفردوا هم بهذه الاجتماعات ، بل دعوا اليها « كل من قبل الكلمة واعتمد » — وسرعان ما كثروا — وكانوا اثنـاء هذه الاجتماعات يتذاكرون تعاليم المخلص وآياته ، وقد زالت عن قلوبهم الغمّة بعد رؤياهم اياه ، « فيتناولون الطعام بابتهاج ونقاوة قلب » (اعمال ٢ : ٤٦) ويسبحون الله ، وهكذا « كانوا مواظبين على تعاليم الرسل والشركة في كسر الخبز والصلوات » (اعمال ٢ : ٤٢) .

لا شك في ان كتاب « الاعمال » يصف « القداس » في الآية المذكورة . ومنها يتبين ان المؤمنين كانوا « مواظبين » عليه (وكانوا آنذاك يقيمونه في البيوت ، اعمال ٢ : ٤٦) وانهم كانوا اثناءه يسمعون تعاليم الرسل ، من فم الرسل ثم من فم تلاميذهم — وهذه التعاليم هي التي اخذت تدوّن فتكون منها نص الاناجيل — وانهم فيما بعد ، عندما اخذ الرسل يتنقلون في « الكنائس » استمعوا الى « رسائل

الرسل » وانهم ، في نهاية اجتماعهم ، كانوا « يكسرون الخبز » اي يأكلون الخبز ويشربون الخمر ، كما فعل المخلص مع الرسل في العشاء الاخير . وكسر الخبز هذا كان « شركة » اي عنوان اتحاد المؤمنين بالرب واتحادهم بعضهم ببعض . على ان هذه الاجتماعات لم تسلم ، في بعض الكنائس ، من كل شذوذ ، ولذلك نرى بولس يذكر اهل كورنتس بطريقة اكل « عشاء الرب » (١ كور ١١ : ٢٠) اي كما فعل الرب وتسلم بولس وسلّم — وبمعنى هذا العشاء اي انه شركة جسد المسيح ودم المسيح وشركتهم جميعاً ، لانهم جميعاً يشتركون في الخبز الواحد (١ كور ١٠ : ١٦—١٧) .

واثناء العشاء كانوا يرفعون الدعاء والصلوات . وصلواتهم هذه ، بعضها كان قديماً ، وبعضها جديد . فالقديم هو ما حفظوه من « العهد القديم » ، عهد اليهود ، لان المسيحيين الاولين ، اقله في فلسطين ، كانوا من اليهود . وكما ان المسيح لم يتخلَّ عن « الكتاب » ولا الرسل بعده ، كذلك حافظ عليه المسيحيون ، وانشدوا ، في ما كانوا ينشدون ، « المزامير » التي كانوا ينشدون وهم بعد يهود . ولكنهم ، وقد اعتنقوا ايماناً جديداً ، لم يكتفوا بها ، بل صاغوا ، على منوالها ، اناشيد وصلوات ، تعبر عن ايمانهم الجديد ، فدعوا « الآب » « ابانا » ورددوا الصلاة التي علمهم اياها المخلص ، ومجدوا ، لا الله فحسب ، بل « الآب والابن والروح القدس » ، ونطقوا بمزامير جديدة — وان لم تكن موحاة كالمزامير الاصيلة — فتكوَّن لهم نوع من الصلاة جمع بين القديم والجديد ، وعبر عن كامل ايمانهم . وابلغ صلاة وضعوها

هي « صلاة الشكر » او « اوخارستيا » وهي صلاة كانوا يتلونها اثناء « كسر الخبز » ومنها اطلقت اللفظة على « كسر الخبز » عينه ، اي ذبيحة القداس .

هذا كان وضع القداس في العهد الاول . ولم تمضِ المئة من السنين ، حتى تكونت اقسامه الاساسية ، لا في خطوطهـا العامة فحسب ، بل في نصوصها ايضاً . وان نحن حاولنا ان نحللها ، وجدناها ترد الى قسمين متميزين ، مُهد لهما مع الزمن بمقدمة .

القسم الاول : ما قبل الذبيحة ، وهو قسم التعليم والنشيد

هو قسم التعليم ، لان محوره تلاوة نصوص الكتاب وتفسيرها . كان « المؤمنون » و « الطالبون » بحاجة الى تعلم الكلمة التي بها آمنوا او يطلبون الايمان . وفي غياب الرسل ، او بعد موتهم ، كان السبيل الآمن والاقرب الى الغاية تلاوة « ذكريات الرسل » اي الاناجيل ، وتلاوة « رسائلهم » الى الكنائس . وبعد التلاوة ، كان المتقدم ، وهو ممن سمعوا الرسل ، ينطق بما يفتح به عليه الروح ، تفسيراً لها .

وهو قسم النشيد ، لان دين المسيح لا يقوم بتفقيه العقل وحده ، بل هو حياة ، اساسها الايمان ، اي تسليم الذات الى الله . ومن سلم ذاته الى الله لا يسعه ان يسكت عن الصلاة ، طلبة كانت او تسبيحاً . فأخذ المؤمنون ينشدون المزامير ، القديمة والجديدة ، الكتابية والبيعية ، وكان من الطبيعي ان تتجه القلوب الى الذبيحة التي يقبل عليها المؤمنون ، فاتجهت الاناشيد والصلوات الى حيث اتجهت القلوب فاصبح هذا

القسم ، للمؤمنين ، تهيئة للذبيحة الاوخارستية . وللطالبين الذين لم يحظوا بعد بنصيب في الشركة ، نوعاً من الذبيحة الروحية .

وعلى هذا تكوّن هذا القسم السابق للذبيحة من صلوات وطلبات واناشيد تحيط بتلاوة كلام الله . ورافق الطلبات تقدمة البخور ، لما كان جارياً من حرق البخور ، تعبيراً عن العبادة .

القسم الثاني : الذبيحة وهو قسم العبادة و « الشركة »

قال المسيح لتلاميذه ، بعد العشاء ، « اصنعوا هذا لذكري » وقال لهم وهو يوجه اليهم وصيته الاخيرة « لن اترككم يتامى » — ولم يكن احب الى التلاميذ ، بعد ان توارى عنهم الرب ، من ان يحيوا ذكراه ، ليبقى بينهم .

وقد احيوا ذكراه ، على النحو الذي به اوصى ، بالجلوس الى « عشاء الرب » ؛ وكان « لعشاء الرب » الذي يقيمون ، في عيونهم ، كل المعاني التي كانت للعشاء الاول الذي اقامه هو معهم .

كان عشاء الرب « الفصح الجديد » اي الذبيحة الحقيقية ، لا ذبيحة شكر رمزية قائمة بالصلاة او بذبح حمل من لحم ودم ، واكل لحمه المادي ، اياً كانت قدسيته ، بل ذبيحة شكر حقيقية تقدم الى الآب ، وتمثل فيها تمثيلاً سرياً ، دون ما لحم ودم ، ذبيحة حمل الله الحامل خطايا العالم ، ويؤكل فيها جسد الرب ، الذي لا قداسة الا منه .

وكان « الفصح الجديد » اي الذبيحة الحقيقية ، لا ذبيحة شكر

على خلاص جسداني من ارض مصر وعبودية فرعون، بل على خلاص روحاني من حمأة الشر وعبودية الشيطان . وكان « الفصح الجديد » اي الذبيحة الحقيقية ، لا « مناً » زائلاً يأكله العابرون بادية سينا تغذية لابدانهم حتى يبلغوا ارض ميعاد، على وجه الدنيا، لن تنجيهم من الموت الدائم ، بل « مناً » سماوياً يقتات به العابرون بادية هذا العمر ، قوتاً لارواحهم ، حتى يبلغوا ارض الميعاد الحقيقية ، اي ملكوت الله ، الذي لا نهاية لافراحه .

كل هذه المعـــاني كانت ترتسم في قلوبهم وهم يقيمون « عشاء الرب » : مثله اخذ الرسل الخبز، وباسمه كسروا ، واكلوا ، واعطوا المؤمنين ليأكلوا جسد الرب المكسور ؛ مثله اخذوا الكأس ، وباسمه باركوا ، وشربوا ، واعطوا المؤمنين ليشربوا دم للرب المسفوك ، عن الشعب ، لمغفرة الخطايا وللحياة . وكانوا يعبرون عن هـــذه المعاني والاعمال بالقول ، فيبدأ المتقدم ، داعياً الجميع – بعد المصافحة الاخوية – الى شكر الآب على جميع مواهبه ، وبنوع خاص على موهبة المواهب ، ابنه الوحيد ، يسوع المسيح، الذي تألم ومات عنا ، ورسم لنا هذا العشاء . وكان المؤمنون يوافقون على الدعوة ، مرددين بصوت الايمان : « اننا نتذكر . . . » وتتميماً لثمار الذبيحة ، كان المتقدم يدعو الروح ، ينبوع كل قداسة ليحل على «الاسرار» ويجعلها مثمرة لخلاص قابليها .

اما وقد حضر الرب بين من لم يشأ ان يتركهم يتامى ، فكيف لا يعرضون له حاجاتهم؟ وكانت تتوالى الطلبات ،الواحدة بعد الاخرى ،

عن شتى حاجات الكنيسة ، وعلى نية كل طبقة من طبقات الشعب : الرؤساء ، المرسلين ، المرضى ، الموتى ... حتى لا يحرم احد معونة الرب.

حضر الرب بينهم ، وعرضوا له حاجاتهم ، ولم يبق لهم الا ان يسدوا حاجتهم القصوى اليه فيتناولوا جسده ، اتحاداً به ، وتغذية لنفوسهم . وكان المتقدم يكسر الجسد ليكفي الجميع ، والمؤمنون يتلون ، قبل التناول ، الصلاة التي علمهم اياها الرب ، وليس افصح منها في التعبير عن حاجات الانسان الحقيقية : « ابانا الذي في السماوات .. » ثم يدعوهم الى التناول ، مذكراً اياهم بالبرارة المقتضاة للاقتراب من جسد الرب : « القدسات للقديسين » اي الاسرار للابرار . ثم يتناول الجميع ، كل حسب رتبته ، و بعد التناول يشكرون و ينصرفون .

فتكوين هذا القسم واضح اذن : بعد المصافحة الاخوية ، تلاوة صلاة الاوخارستيا التي تتضمن الشكر للآب ، وذكرى فداء الابن ، ودعوة الروح ، ثم التذكارات ، فالكسر ، فتلاوة « الابانا » والتناول والشكر .

المقدمة :

ومع الزمن ، مُهد لهذين القسمين بمقدمة « لتهيئة القرابين » . فالذبيحة ، كعمل طقسي ، لها مادتها ، وهي الخبز والخمر . والخبز والخمر ، كان يأتي به المؤمنون من بيوتهم : يختارون خير ما عندهم منه ليقدم للكنيسة . وكان « الشماس » يقبل هذه التقادم ، في اول الاجتماع ، ويختار منها ما هو ضروري للذبيحة ، اما الباقي فيوزع على الفقراء او يبقى لخدمة المذبح .

هذا هو القداس ، بمعناه الاصلي وفي تكوين رتبته. وكان لا بد لهذه الرتبة من ان تتوضح مع الزمن وتنتظم في « طقس » ، محدود النص ، محدود الاشارة ، محدود العمل . على ان التحديد لم يقصد منه الا تلافي الشذوذ ، لا خنق الروح او دفن المعنى . وفي البحثين التاليين سنتبين في رتبتنا الحالية هذه الاقسام والمعاني ، فنراها ، برغم ما مرّ عليها من الايام ، جلية الخطوط تمتاز بجلال القدم دون ان تفقد شيئاً من حرارة الحياة .

ما قبل الذبيحة

الاشخاص والامكنة والاواني

قبل الدخول في تحليل رتبـة القداس ، لا بد من اشارة الى الاشخاص والامكنة والاواني .

ان القداس هو محور العبـادة في الدين المسيحي ، وسلطان الكهنوت ، الذي هو اساس السلطة الكنسية ، يحدد بالنسبة الى القداس. فالكاهن هو من خوِّل سلطان تقدمة الذبيحة ، وسائر « درجات الكهنوت » تحدد بالنسبة الى وظيفة اصحابها ، اثناء تقدمة الذبيحة . « فالشماس » — الذي قبل الدرجة الشماسية — هو مساعد الكاهن الاول في اعمال الرتبة المادية كاقتبال القرابين وتوزيع الاسرار وعليه ان يسهر على انتظام الرتبة ، فيدعو الشعب الى الصلاة ، ويعلن عليه التنبيهات ، ويتلو على مسامعه الانجيل . ومثل الشماس وبعده

«الشدياق» وهو يساعد في تهيئة القرابين ويتلو فصلاً من «الرسائل» . وهكذا دواليك ، لكل وظيفة في الرتبة ، درجة في « الدرجات » . اما الشعب فله ايضاً مقامه ووظيفته ، لان المؤمنين قبلوا في العماد « وسم » الروح القدس ، ليسجدوا لله السجود الحق ، فيشتركوا بالذبيحة التي تستخدم فيها تقادمهم وتتلى ادعيتها باسمهم . وكما ان لكل شخص رتبته ، كذلك لكل شخص ملابسه ، لان القداس عمل « طقسي » والعمل الطقسي عمل « رسمي » يقوم به اشخاص معينون بملابس معينة[1] ، اتخذت ، اول ما اتخذت ، للحاجة لا للرمز .

الذبيحة تقدم على «مذبح » ومذبح «عشاء الرب» كان ، في البدء ، مائدة ، كموائد البيوت . وعندما بنيت الكنائس اصبح المذبح من حجر ، مائدة مبسوطة ، تسمح لخدمة المذبح ان يحيطوا بها . ومع الايام ، وضع عليها صليب ، وبعض الشموع ، واغطيـــة ، احتراماً لجسد الرب . ولما كانت المعابد تقام ، في العصور القديمة ، على قبور الشهداء والقديسين ، اشترط فيما بعد ان يتضمن المذبح ذخيرة من الذخائر او اقله ان لا تقام الذبيحة الا على « شيء » مكرّس من حجر او خشب « كالطبليت» عند الموارنة او من قماش « كالاندميسي» عند الروم . وعندما انتظمت المعابد ، خصصوا الى جانبي المذبح محلاً « لوضع القرابين » وآخر «لحفظ الذخيرة » ، اطلق على كل منهما ، من باب التوسع ، اسم « المذبح الصغير » . ولكن

---

١) اخذ الموارنة عن اللاتين كثيراً من عاداتهم وملابسهم ، منذ عهد الصليبيين . راجع براءة اينوشنسيوس الثالث الى البطريرك ارميا العمشيتي .

الذخيرة حفظت ايضاً ، حسب الاماكن ، في « خزانة » او ضمن « اناء » ثمين ، بشكل حمامة ، علق فوق المذبح .

والقداس عمل طقسي ، تستخدم فيه بعض الاواني . وأهم الاواني «الصينية والكأس» لوضع الخبز والخمر ، ولكل منهما غطاء (من قماش ، في الاصل ، علاوة على «النجمة» التي كانت توضع فوق الصينية). ، وللجميع الموضوعات غطاء كبير يسمى « نافور» . والاواني تنظف « باسفنجة » وتفرش تحتها «صمدة » . ويضاف الى هذه الاواني آنية البخور والخمر والماء .

تهيئة القرابين

دخل الشعب الكنيسة ، عند الفجر ، تقدم المؤمنون الى الامام ، ووقف بعدهم التائبون والطالبون . امـــا الخطأة فلا يدخلون لأنهم « محرومون من الشركة » .

حمل المؤمنون الى الكنيسة تقادمهم : خير ما عندهم من خبز وخمر . جاؤوا يقدمونها الى المذبح ، عربون تقديمهم ذواتهم الى الله . تناولها منهم الشماس ، وشكرهم ، ودعـــا الى الله « ان يقبل قرابين عبيده ... ويجزل عليهم بركاته...ويعوضهم من تقدمتهم الزائلة الحياة والملكوت » ، ثم اختار منها ما هو ضروري للذبيحة ، من الخبز اولاً ، ثم من الخمر التي صبها في الكأس ومزجها بقطرة مـــاء ، مشيراً الى الدم والماء الذي جرى من جنب المسيح ، على الصليب.

اختار الخبز وصب الخمر «ووضع هذه القرابين» ناحية ملتمساً

من الله الذي قبل قرابين القدماء ان يقبلها ، ثم غطى الموضوعات بالنافور ، صيانة لها .

وفيما كان يهيئ القرابين ، طهر بالبخور الاواني قبل استعمالها : الصينية والكأس والأغطية ، وطهر القرابين قبل وضعها ، وها هو بعد الوضع يبخر ، تبخيراً شاملاً ، الموضوعات والصليب والمذبح والشعب.

وفيما كان يهيئ القرابين ايضاً ، تـلا ، علاوةً على « الدعاء بالتعويض ، وصلاة الوضع » ، بعض آيات من الكتاب ، كيلا يشرد فكره عما يقوم به .

وبما ان رتبة « تهيئة القرابين » لا تقام — اقلّه في القديم — على المذبح الرئيسي ، فكان لا بدّ من حصر اهتمام الشعب بالصلاة ، ولذلك كان الجوق ينشد بعض مقاطع من « صلاة الصبح » .

وان نحن عدنا ، بعد هذا العرض ، الى الرتبة الحالية ، وجدنا فيها كل النصوص والاشارات المذكورة ، مع الملاحظة ان « الروبريكة[1] » ضبطت كل حركات القائم بالرتبة — وهو ، في الرتبة العادية ، الكاهن عينه — ضبطاً محكماً . وليس في الرتبة الحالية ما لم ترد الاشارة اليه ، الا الصلاة التي يتلوها الكاهن بعيداً عن المذبح اي « اللهمَّ ، اسألك .. » ، وهذه الصلاة حديثة العهد ، ليس لها اصل سرياني ، وقد وردت في طبعات كتاب القداس القديمة ، في بدء الرتبة ، قبل صعود الكاهن الى المذبح . ولا شك في انها مخلّة بنظام الرتبة ، اياً كان تقدير المؤمنين

١) « الروبريكة » لفظة من اللاتينية تعني التنبيهات التي تتخلل نص الرتبة ، والمكتوبة بالحبر الاحمر ، ومنه اسمها .

لها . وهو تقدير خصت به لانها تتلى بلغة يفهمها الشعب . وبنهاية التبخير الذي يرافقه نشيد « اقبل يا وادّ التائبين » تنتهي تهيئة القرابين او مقدمة الرتبة .

الفرض السابق للذبيحة

اطلق على هذا القسم اسم «قداس الموعوظين» لأن « الموعوظين» او طالبي العماد ، كانوا يحضرونه وحده دون الذبيحة . ولا تعني هذه التسمية ان المؤمنين لم يكونوا يحضرونه ، بل كان يحضره الجميع – ما عدا الخطأة المحرومين ما داموا مقطوعين عن شركة الكنيسة . وقد سميناه «ما قبل الذبيحة» لانه ليس «قداساً» بحصر المعنى ، ولانه يهيء القلوب للذبيحة ، بسماع كلام الله .

واساس هذا القسم تلاوة « كلام الله » وما يحف بهذه التلاوة من طلبات وصلوات واناشيد . وقد ترتب ترتيب صلاة « الفرض» ، او بالاحرى رتبت « صلاة الفرض » على منواله ، ويمكن القول ان سائر الرتب البيعية ، باستثناء الذبيحة ورتب الاسرار بالذات ، جرت اقله في طقسنا الماروني ، على نهج واحد ، وهو النهج المقتبس من رتبة « ما قبل الذبيحة » . وليس في الامر عجب ، لأن المسيحيين كان لهم نوعان من الاجتماعات ، اجتماعات الصلاة والاجتماعات «السرّية» ، اي التي تمنح فيها الاسرار . وكثيراً ما اقيم الاجتماعان في وقت واحد ، فيبدىء الاجتماع بالصلاة ويختم بمنح السر ، حتى اذا ما انتظمت الحياة النسكية ، تكررت اجتماعات الصلاة ، فنشأت عنها «ساعات الفرض القانونية ».

قلنا ان صلاة الفرض رتبت على منوال القسم الاول من القداس، ولكن الترتيب ، في النصوص الحالية، يبدو في صلاة الفرض اوضح منه في القداس ، ذلك ان صلاة الفرض لم يطرأ عليها ما طرأ على القداس من زيادات وتطوّرات. وفي بحثنا عن العماد ـ الفرض السابق للمعمودية ـ اشرنا الى ترتيبها، الذي نلحظه في اي ساعة كاملة، وان غير مطوّلة ، من ساعات الفرض ، وهو هذا :

السجود للثالوث ـ الفاتحة ـ الطلبة ـ المزمور ـ الحساي وتقدمة البخور ـ نشيد الفتح ـ صلاة العطر ـ نشيد المزمور ـ القرآآت مع مقدماتها ـ الكرازة او الباعوت . وان نحن تتبعنا نص القداس وجدنا فيه الترتيب عينه ، لا مرة واحدة بل مرتين، مع الملاحظة ان القرآآت لا تتلى الا مرة واحدة ، وهو امر جارٍ كلما تليت ساعتان من ساعات الفرض ، الواحدة تلو الاخرى .

وان مقابلة صلاة الفرض بما يقابلها من رتبة القداس تفسح مجالاً للملاحظات التالية :

ـ ان قسم «ما قبل الذبيحة» في القداس ، وصلاة « الفرض » يجريان على نظام واحد .

ـ في هذا القسم ساعتان مجتمعتان استغني في كليهما عن المطالع وما اليها من مرمايات .

ـ في الفرض الاول استغني عن القرآآت والحق الباعوت بصلاة العطر . اما التذكارات السرية فليست في محلها .

— في الفرض الثاني استغني عن الباعوت والختام ، نظراً لأن رتبة القداس لم تنته بعد . والأمر عينه يجري في سائر رتب الاسرار[1].

١) واليك المقابلة المشار اليها :

صلاة الفرض الاحتفالية	الفرض الاول في القداس	الفرض الثاني في القداس
تمجيد الثالوت	كيرياليسون، قدوس الله، ابانا	
المجد للآب	المجد للآب	المجد للآب
الطلبة	من اجل امان	من اجل امان
الفاتحة	اهلنا ايها الرب الاله	اهلنا ايها الاله الرحوم
المزمور	المجد لله في العلى	ارحمني يا الله
مرماية اولى		ارحمنا يا الله كعظيم رحمتك
〃 ثانية		
المطالع والمرمايات		
السواغيت		
الحساي	لذلك العظيم	الافراميات
الفتح	اننا نذكر	قدوس انت
صلاة العطر	لك يا يسوع	ايها الرب القدوس
نشيد المزمور		ان الذي شهده موسى
السنكسار—العهد القديم [التذكارات]		
اعمال الرسل —		
الرسائل		رسائل بولس
تهليل وفتغام		هللويا، اذبحوا للرب
الانجيل		الانجيل (بعد مقدماته)
كرازة		فلنقف كلنا مصلين
باعوت	صلاتك معنا	
مدرشو — ختام		

- التبخير في هذا القسم ليس في محله . فالتبخير ، في صلاة الخورس ، يرافق تلاوة الحساي . وفي القداس هذا موقعه ايضاً ، ولكنه نقل من محله لانه يتعذر على كاهن واحد تلاوة الحساي وتقدمة البخور في وقت معاً ، وارجئ ريثما يبلغ الكاهن الى نص بسيط يعرفه عن ظهر القلب ، فيتسنى له ان يتلو النص ويقدم البخور في الوقت عينه. وعلى هذا ارجئ التبخير الاول من وقت الحساي الاولى الى وقت «ارحمني يا الله » والتبخير الثاني من وقت الافراميات الى وقت نشيد الفتح.

- في رتبة القداس احيطت تلاوة الانجيل بحفلة خاصة : تبخير (اقله بموجب النص) وبركة واكثر من مقدمة .

- اما الآيات التي يقولها الكاهن عندما يباشر عملاً ما كالصعود الى المذبح ووضع البخور ومنح البركة فقد اعيدت كل مرة ، حتى بعد الاستغناء عن العمل[١] .

ان هذا القسم كان ينتهي بدعوة الموعوظين الى الانصراف - بعد الانجيل - ولا تزال هذه الدعوة مثبتة في الكتاب .

---

١) هذا استناداً الى كتب القداس المطبوعة ، وقد طرأ فيها بعض التعديل او الزيادة على الوضع الاول . ففي مخطوط محفوظ في مطرانية حلب المارونية وخط في لبنان سنة ١٤٩٠ - ذكرت «التذكارات السرية» في نهاية تهيئة القرابين ، ولم يذكر في هذا المخطوط لا « اللهم ، اسألك » ولا « اقبل يا وادّ التائبين. . .» ولا الفرض الاول برمته . ولم يثبت فيه الا الفرض الثاني ، واشير فيه الى وضع البخور في محله ، اي وقت الافراميات . ولا ذكر فيه للآيات التي تقال عند الصعود الى المذبح وعند وضع البخور .

من هذا التحليل نستطيع ان نخلص الى نتيجتين :

ـ الاولى ، تتعلق بالاساس ، وهي ان هذا القسم يتضمن كافة العناصر التي كانت تقوم عليها الرتبة القديمة ، اي القرآآت والطلبات والاناشيد . ومن القرآآت اكتفي بالانجيل ورسائل بولس ، ومن الطلبات بالطلبة الاولى « من اجل امان وسلام » والحساي ، اما الاناشيد فهي من المزامير .

الثانية ، تتعلق بالشكل ، وهي ان هذا القسم ما زال محتفظاً بترتيب صلاة الفرض ، وترتيب الرتب الاستعدادية للاسرار ، مما يجعل انسجاماً في مجمل رتب الطقس ليس لنا الا ان نعجب به ونتمسك فيه .

ـ اما ما نتمنى ان يزول فهو ما طرأ على الرتبة مع الايام من تشويه وزيادة وجمود . فالتشويه وقع في نقل الحركات والصلوات من محلها الاصلي . والزيادة وقعت في اضافة فرض برمته ، او صلوات لا داعي لها . والجمود وقع بالاكتفاء من القراءات والمزامير بنوع واحد او بنص واحد ، وبتكرار ما لا ينبغي ان يكرّر ، وبعدم تنمية الطقس ، وفقاً لمقتضيات «الكلندار» . ولو أصلِح ما تشوّه ، واستُغني عن الزيادات ، وضُمَّ الكلنداران المتحاذيان ، واختلفت النصوص باختلاف الايام والاعياد ، لكان لنا رتبة لا يشكو الشعب من طولها او من تكرار اجزائها واعادة نصوصها ، رتبة واضحة التركيب ، شيقة السماع ، غنيّة المضمون ، تفقه العقل وتغذي التقوى ، وتهيء القلب احسن تهيئة لتقدمة الذبيحة .

الذبيحة

انتهى القسم الاول من القداس باطلاق التائبين والموعوظين . وحان وقت تقديم الذبيحة . ولتقديم الذبيحة رتبة او صيغة معلومة سميت « نافور » ، واللفظة من اليونانية ، ومعناها التقدمة . وهي تسمية مصيبة لان الذبيحة ليست سوى تقدمة ابن الله للآب عن البشر . وفي القديم ، كانت الابواب توصد قبل مباشرة الذبيحة ، لان خبز البنين للبنين .

وفرض تنظيم الرتبة القيام بعمل تمهيدي قبل مباشرة الذبيحة ، وهذا العمل هو نقل القرابين . هيئت القرابين على منضدة الى جانب المذبح ، والذبيحة تقدم على المذبح ، فلا بد اذن من نقل القرابين . وكانت تنقل في زياح احتفالي ، على نغم النشائد وشذى البخور . وفي الرتبة الحالية ما زلنا ننشد نشيد نقل القرابين ، (الذي بدؤه : « الرب ملك والجمال لبس ... » وهو نشيد يختلف باختلاف الايام والاعياد[1] ،) وان كنا لا ننقل القرابين لاننا اخذنا نهيئها على المذبح ، وما زلنا نبخر القرابين ، وان كنا ارجأنا التبخير الى وقت تلاوة « قانون الايمان » (لتيسر القيام به اثناء تلاوة نص محفوظ غيباً) .

---

١) قابل في رتبة العماد الانتقال من الخورس الى حوض العماد . — ان نشيد نقل القرابين يختلف باختلاف الايام والاعياد ، فللاعياد السيدية نشيد ، ولاعياد السيدة نشيد « اطلبي عنا » ، وللموتى نشيد « اذكر يا رب الموتى وامنحهم الراحة ... » وقد اثبت منه كتاب القداس القسم الاول ، وذكره مخطوط حلب بكامله .

وضعت القرابين على المذبح ، فليس للمؤمنين الا ان يباشروا « التقدمة » . واول عمل يقومون به هو تلاوة « قانون الايمان » . وقد يدلنا على معناه ، في هذا المحل ، ما نشهده اليوم من انشاد « النشيد الوطني » في بدء حفلاتنا الرسمية . فكل اجتماع رسمي يبدأ باعلان عقيدة المجتمعين ، والاساس الذي عليه يجتمعون . وبديهي ان يتلو جميع « المشتركين » قانون الايمان ، وقوفاً ، وبصوت واحد .

وفي نهاية التلاوة يغسل المحتفل يديه[1]. ثم تبدأ التقدمة « بالنافور » والنافور[2] اجزاء ، بعضها ثابت لا يتغير ، وبعضها يختلف باختلاف النوافير ، لما هو معلوم من تعدد النوافير في الكنيسة السريانية . على ان النوافير جميعها تسير السَير عينه او تكاد . وسيرها هو هذا : ١ـ مقدمة : تتضمن صلوات الابتداء وهي ثلاث ،

---

١) لا ذكر في مخطوط حلب لغسل اليدين .

٢) في الكنيسة السريانية نوافير عدة، تربو في نظر البعض على السبعين، نسبت ، نسبة غير ثابتة ، الى مشاهير الرسل والاباء ، ونشر بعضها في طبعات كتاب القداس المتوالية ، مع بعض الاختلاف ، حسب الطبعات . ويرى العارفون ان النافور الماروني الاصيل هو النافور المسمى نافور « شرر » من اللفظة السريانية التي يفتتح بها . وقد اثبت هذا النافور ، مع بعض التعديل ، في الكتب المطبوعة ، لقداس « رسم الكاس » . اما مخطوط حلب فقد ادرجه في رتبة القداس الكاملة ، اي حيث تدرج الطبعات الحديثة « نافور الكنيسة الرومانية » . ولا مجال لنا هنا للتبسط في موضوع « نوافير القداس » على اننا نحيل القارئ الى المقالات التي نشرها حضرة العلامة الخوراسقف ميخائيل الرجي في مجلة المنارة ، سنة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ ، والتي استقينا منها بعض ما ورد في هذه الخلاصة .

٢ـ محور : يتضمن الصلاة التقديسية وفيها شكر الاب وذكر الابن ودعوة الروح القدس ، ٣ـ اضافة : تتضمن تذكارات الاحياء والاموات ، ٤ـ تتمة : تتضمن رتبة المناولة ، ٥ـ خاتمة : تتضمن الشكر والوداع .

١ - مقدمة النافور

في بدء النافور ، بعد التمجيد الافتتاحي ، صلوات ثلاث : الاولى للسلام ، والثانية للسجود ، والثالثة للحجاب . وهي ترفع جميعاً ، الا في بعض النوافير الحديثة ، الى الآب .

وهذه الصلوات هي مقدمة للنافور روحية وعملية معاً . هي مقدمة روحية لان التصافي وتبادل « قبلة السلام » شرط لا يرضى الله عن ذبيحتنا بدونه ، كما نبهنا الى ذلك المخلص (متى ٥ : ٢٤) ، ولان رأس العبادة السجود . وهي مقدمة عملية لان القرابين الموضوعة قد القي عليها حجاب ، ولا بد لتقديسها من رفعه .

وهذا هو في الواقع معنى الصلوات الثلاث : فالاولى تلتمس السلام للمؤمنين ، والثانية تستنزل عليهم بركة الله ، والثالثة تطلب النقاوة لمباشرة الذبيحة .

وبعد الصلاة الاولى ، يقول الكاهن صلاة سرية والشماس « الكرازة المتوسطة » . وعلى اثرها يتبادلون جميعاً ـ الكاهن والشماس والشعب ـ قبلة السلام . ولكن اغلب النوافير نقلت اعطاء السلام الى ما بعد الصلاة الثالثة ، كما يجري الامر في طقسنا الماروني .

اما الصلاة الثانية فقد كان يمهد لها الشماس بتنبيه الشعب الى حني الرأس ، ومازال هذا التنبيه مثبتاً في نص الخدمة السرياني .

وفي نهاية الصلاة الثالثة يرفع الكاهن الغطاء عن الاسرار ، والشماس يدعو الشعب الى الوقوف ، اجلالاً للذبيحة . وكان الشعب يجيب : « الرحمة والسلام والقربان والمجد » ، على ما هو جار في سائر الطقوس الشرقية .

٢ – الصلاة التقديسية

ما زالت الكنيسة ، على مثال المسيح وبأمره ، مواظبة ، كالرسل والمؤمنين في العهد الاول ، على الصلاة وكسر الخبز . والصلاة هي « اوخارستيا » اي صلاة شكر ، واسمها دليل عليها ، سواء في القول والفعل ، لانها تتضمن شكر الآب ، وذكر ذبيحة الابن ، لفظاً وفعلاً ، واستدعاء الروح القدس ، مقدس الاسرار والنفوس .

في بدء هذا الجزء ، يبادر الكاهن الشعب بالتحية ، التي يمتاز بها المؤمنون بالمسيح عن سواهم (٢ كور ١٣ : ١٣) . ثم يدعوهم الى رفع قلوبهم الى العلاء وتأدية الشكر لله ، حتى اذا مـــا اجابوه بالموافقة ، شرع يشكر ، سراً ثم جهراً ، واتى ، في استرساله ، على ذكر تسبيح الملائكة ، فيقاطعه الشعب مردداً تقديسات اشعيا : قدوس ، قدوس ، قدوس . . . وغلب على هـــذا الجزء اسم « صلاة الشكر » .

ثم يستأنف الشكر سراً ، على موهبة المواهب يسوع المسيح ، الذي تألم ومات عنا والذي — وهنا يرفع صوته راوياً « عشاء الرب » —

« ليلة آلامه ، اخذ خبزاً . . . وكسر[1] . . . » فيسرد خبر « العشاء السري » حرفاً بحرف ، موافقاً بين القول والنية ، مستحضراً جسد الرب ، حتى اذا ما انتهى اعلن الشعب ايمانه بحضور المسيح ، قائلاً : آمين . وهذا هو « كلام التقديس » .

وما ان يذكر الكاهن وصية المخلص « ان اصنعوا هذا لذكري » ، حتى يمتثل الشعب لها فيعلن بقاءه على ذكر اعمال الرب الخلاصية من موته الى قيامته الى صعوده فانتظار مجيئه الثاني ، الامر الذي يؤكده الكاهن ، مستغفراً متضرعاً ، مع الشعب : « ارحمنا . يا رب ... » مقدماً الذبيحة ، تسبيحاً وتمجيداً واستغفاراً . وهذا ما سموه صلاة « المدبرنوت » اي صلاة الذكر . التي تشير بحق ، في نهايتها ، الى البتول ام الله ، شريكة ابنها في فداء البشر .

ابتدأت الصلاة التقديسية بشكر الآب ، وانتقلت الى ذكر الابن ، وهي تنتهي باستدعاء الروح القدس ولذلك يلتمس الكاهن حلوله على الاسرار وآخذيها ، بينما يؤهب الشماس الشعب الى هذه « الساعة الرهيبة » بتنبيه يوضح معناها ، حتى اذا ما انتهى منه ، جثا الكاهن واستدعى الله علناً بدعاء ايليا النبي : « استجبني ، يا رب ... » — فالحف الشعب : « كير ياليسون يا رب ارحم » — والتمس الكاهن ، في خاتمة الدعاء ، من الروح القدس ، ان يجعل الاسرار لمغفرة خطايا المشتركين ، وحياتهم

---

١) لا يزال الكاهن يلمس الخبز من نواحيه الاربعة، ذكراً للكسر .

وخلاصهم[١] . وهذه هي « دعوة الروح » .

٣ – التذكارات

يعز على المؤمنين بالمسيح ، وهم يعتقدون انه قدم ذاته ذبيحة عن الكل ، ان لا « يذكروا على هذه الذبيحة الغافرة » اخوتهم الغائبين ، احياء كانوا ام امواتاً . وقيامـاً بهذا الواجب اضيفت « التذكارات » .

والتذكارات وردت اما مجملة في تذكار واحد ، واما مفصلة في تذكارات ستة ، حسب النوافير . وقد خِص كل منها بفئة : الاول للكنيسة ورؤسائها ، الثاني للاخوة المؤمنين ، الثالث للملوك والحكام ، الرابع للقديسين ، الخامس للملافنة ، السادس للموتى . وفي كل منهما قسمان قسم سري ، يقوله الكاهن بصوت منخفض ، بينما ينبه الشماس الشعب الى موضوعه ، وقسم علني يؤكد به الكاهن جهراً ما سبق وذكره سراً . وفي نهاية تنبيه الشماس ، يصرخ الشعب : « ارحم يا رب » وفي نهاية اعلان الكاهن يردد متضرعاً : « آمين » .

وتتوالى التذكارات الستة على النحو عينه ، ما عـدا التذكار الاخير ، المخصص بالموتى ، الذي يقطع الشعب فيه اعلان الكاهن قائلاً : « ارح اللهم الموتى » ويشترك معه ، في اختتامه ، بتلاوة التمجيد : « كما كان وهو الآن ... » .

---

١) لا يشير نافور « شرَر » ، في دعوة الروح ، الى تحويل « الخمر » او « الخبز » الى جسد المسيح ...

٦ - المناولة

حضر المسيح بين المؤمنين ، فاستغفروه وتضرعوا اليه عن الكل ، وليس لهم الا ان يسدوا حاجتهم القصوى اليه بتناولهم جسده . فالمناولة اذن تتمة للذبيحة ، روحية وطقسية . هي تتمة روحية لان الرب يستجيب شوق المؤمن الذي قدم ذاته اليه بحلوله فيه ، وهي تتمة طقسية لان الاسرار التي تقدست ينبغي ان تتلف . ولن تتلف خلواً من كل تدنيس الا بالمناولة وفقاً لرغبة المخلص الذي اعطى جسده ودمه مأكلاً ومشرباً .

وللمناولة رتبة ، فرضها احترام السر والضرورة العملية. ومما فرضته الضرورة العملية « القصي » او الكسر وهو تجزئة الجسد على عدد المتناولين ، و«الرشم» او نضح الجسد المقدس بالدم ، نظراً لان السر ، بشكليه ، سر واحد ، و« العرض » او الرفعة وهو بمثابة دعوة الشعب الى « التقرّب » .

وفيما يلي كلمة عن كل من هذه الطقوس وما اليها .

يفتتح الكاهن رتبة المناولة باعطاء الشعب البركة . ثم يأخذ يقسم الجسد وينضحه بالدم . وكان يقوم بهذا العمل ، بعد اعطاء البركة ، وهو يقول سراً الصلاة التي ما زلنا نقولها وهي : « آمنا وقدّمنا وها نحن نختم ونكسر هذه الاوخارستيا ... » ولا يزال الكسر ، في محله هذا ، عند سائر السريان. وفيما كان يكسر الجسد كان الشماس يشغل انتباه الشعب بتلاوة الكرازة : « فلنطلب كلنا »[١]

---

١) ما زلنا ، عند قولنا « نكسر » « نلمس اطراف الجسد الاربعة »

وبعد ذلك تتلى الصلاة الربية . وقد وضعت هنـــا لانها خير استعداد للمناولة . او ليس جسد الرب ، من الخبز الذي نطلبه ، اول الكفاف ؟ والصلاة الربية يمهد لها الكاهن بمقدمة ، لاحسان تلاوتها ، ويردفها بخاتمة لاجمال طلباتها .

ويلي الصلاة الربية صلاة السجود (وهي الثانية) يمهد لها الشماس بدعوة الشعب الى حني الرأس ، التماساً للبركة قبل اقتبال الاسرار ، وبعد تلاوتها يمنح الكاهن الشعب البركة . اما فحواها فطلب البركة والغفران والتأهيل الى قبول الاسرار .

تمت الاستعدادات للمناولة . وها هو الكاهن يعرض الاسرار على الشعب ، داعياً المؤمنين الى الاقتراب ، مذكراً اياهم بالبرارة الواجبة ، بكلام قديم العهد : « القدسات للقديسين ... » يعيد الى الاذهان وصية بولس الرسول الى اهل كورنتية « فليختبر الانسان نفسه » (١ — ١١ : ٢٨) فيقبل الشعب الاعلان مجاهراً بايمانه : « آب واحد قدوس ... » ومن ثم يبدأ التناول . كل حسب رتبته ،

(كلام الرويريكة الحالية) . ولعل في هذا « اللمس » وما يتبعه من رسم الصلبان الثمانية عشر (١٢ فقط في قداس رسم الكاس) اثراً للكسر والنضح الذي كان يتم في هذا الوقت ثم ارجىء الى ما بعد « الرفعة » ، اياً كانت الرموز التي تبينها فيه الشراح المتأخرون (منارة الاقداس ٢ : ٤٤٩) . ومن المفيد ان يقابل طقس « الرشم » في القداس ، بطقس « المزج » في تبريك ماء العماد ، ومن المقابلة يظهر ان الصلاة في الرتبتين هي هي . امـا ما سموه « الرفعة الصغرى » فزيادة حديثة ، ومثل الرفعة الصلاة التي ترافقها : « ايها الاب الحق » ، التي لم تذكر في مخطوط حلب .

بعد ابتهال وجيز واستغفار : يتناول الكاهن ثم يناول الشماس وسائر الاكليريكيين ، فالشعب . واثناء المناولة ، تنشد الاناشيد او المزامير ، وبعضها ما زال مثبتاً في كتاب القداس ، يتلى بين جوقين قبل مناولة الشعب وبعدهـــا ، حتى الدورة بالاسرار . وهذه الدورة بالاسرار ليست سوى بركة بالاسرار يمنحها الكاهن الشعب بعد مناولته — كما يشير الى ذلك النص : « من اجل جسدك الذي اطعمتناه ودمك الذي سقيتناه » — عندما يرجع حاملاً الذخيرة ليضعها الى جانب المذبح ، حيث تحفظ للعبادة او للمرضى وحيث تتلف عند تنظيف الاواني ، في نهاية الرتبة . على اننا في الرتبة الحالية ننظف الاواني قبل الشكر .

٥ — الشكر

بالشكر تختم رتبة القداس . وللشكر صلاة بها يحمد الكاهن الله لانه اهل شعبه للتلذذ بجسد ابنه الحبيب ، ويطلب منه ان يكون هذا التناول للخلاص والحياة . ثم يبارك الشعب ويودعه ، متضرعاً الى الله ان يحميه من كل شر ، ويصرفه . وفي القديم ، كان ، في هذا الوقت ، يتناول ما بقي من الاسرار وينظف الاواني ويقول صلاة الختام.

مما تقدم يتضح ان رتبة المناولة ، بنوع اخص ، لم تسلم من كل تغيير . فهذا طقس نقل ، وذاك طقس عدل ، وذلك آخر وُضع وزيد[1]. وقد اقتضى التعديل والزيادة في الطقوس تعديلاً وزيادة في

---

١) من نوع النقل ، ارجاء الكسر الى ما بعد العرض ، وتقديم ائتلاف الذخيرة الى ما قبل الشكر . ومن نوع التعديل ، جعل العرض رفعتين

النصوص ، الامر الذي ثقل الرتبة وعرقل سيرها ، وان كانت الزيادة عن عبادة والتعديل عن قصد نبيل .

على اننا ان اشرنا الى الامر من الناحية التاريخية وتمنينا على السلطة بخضوع بنوي ان تعمل على ازالته ، فذلك لا يعني ان الافراد احرار في التصرف والاختيار . فنصوص القوانين واضحة ، ومثلها الرسوم الطقسية ، والتقيد بها واجب . ولعلنا لم نبلغ الى هذا التشويش الا عن طريق الغيارى ، الذين فاتتهم الامانة في حفظ الرسوم وفاتهم الرأي السديد في التجديد .

هذه هي رتبة القداس بمعانيها وتنظيمها . وليست هذه الخلاصة درساً وافياً لكل المسائل التي يبعثها البحث في القداس . وثمة مسائل هامة لم نشر اليها اشارة ، لان القصد من هذه الابحاث جلاء الغامض لا تغميض الجلي . وقد لاحظنا ان الرتبة لم تسلم من كل تشويه ، عن جهل كان ام عن غيرة ، جعل فهمها مستصعباً بعيد المنال . ولكن التشويه الاكبر المخزي ، هو الذي طرأ ، لا على ما كتب ، بل على ما يقال ويعمل ، من ناحية الكاهن او من ناحية الخادم والشعب .

والاحتفاظ ، محل الكسر الاول ، بشبه كسر . ومن نوع الزيادة ، في الطقس ، رسم الصلبان وقرع الصدر ، وفي النص ، ادخال « ايها الاب الحق » والابتهالات قبل الرفعة ، والا يات وقت الكسر ووقت مناولة الشعب . اما وقد اقرت المنارة والعادة ما اقرت من تعديل وزيادة ، فلا حاجة بعد ذلك الى مزيد ، كارجاء مناولة الشعب الى ما بعد الدورة بالاسرار او الى ما بعد نهاية القداس ، وكتلاوة الصلوات والتراتيل التي لا علاقة لها بالقداس.

اما من ناحية الشعب ، فتكفي الاشارة الى انه قد عزل تماماً عن الرتبة . كانت الرتبة حواراً بينه وبين الكاهن ، فاسكتناه ، ومللناه ، حتى غدا ، اذا حضر ، متفرجاً متثائباً . اما من ناحية الشماس ، فقد اخطأ الشماس دوره في الرتبة . كان صلة بين الكاهن والشعب ، يوجه اليه التنبيه ويدير اناشيده وصلواته ، شأن الرقيب الواعي ، فاصبح مجرّد صوت ، ويا ليته يستساغ ، ينطلق على غير وعي وعلى غـير ذوق ، كأن المقصود صوته لا قوله . من لا يرى ان لسان الشمامسة (المستعارين) البتار عمل ويعمل في نصوصنا الطقسية تقطيعاً وتشويهاً لا يسلم معه معنى ، وان تنغيمهم العالمي الفوضوي ، عمل ويعمل في اناشيدنا الطقسية مسخاً وتسميجاً لا تسلم معه تقوى ! واخيراً من ناحية الكاهن ، الم تطغ العـادة على العقل ، والطبع على النظام ؟

ولكم نتمنى ان تفتح هذه المحاولة مجالاً للسعي ، في سبيل تجديد الفهم ، وتجديد التنظيم ، وتجديد التقوى ، فيعود القداس لا في وضعه السري فحسب بل في ايمـان المؤمنين ومفهومهم ، « شركة جسد المسيح ودم المسيح » .

التوبة

ليس ادعى الى الرجاء من تعليم الوحي في رحمة الله . فالعهد القديم والعهد الجديد ، كلاهما ، فتحا امام الخاطئ باب الغفران ، اذا هو تاب عن اثمه . واذا كانت شريعة موسى قد نصت على عقوبات صارمة بحق بعض الاجرام ، ردعاً لشعب غليظ الرقاب ، فان « يهوى » لم يحرم شعبه ناساً يعلمونه ان « القلب المتخشع المتواضع لا يرذله الله » (مزمور ٥٠) ، وان « الله قد جعل للتائبين مرجعاً » (ابن سيراخ ١٧—٩٠) . واذا كانت هذه روح العهد القديم ، فلا عجب ان نسمع ، في العهد الجديد ، عهد الرحمة والفداء ، من فم ابن الله انه « لم يأت ليدعو صديقين بل خطأة » ، وان نراه « يأكل مع العشارين والخطأة » (متى ٩ : ١٢ — ١٣) ، لينشلهم من عثرتهم . على ان رحمة الله ، بالغاً ما بلغت ، لا تحل على من تشبث باثمه واعرض عنها . ولذلك فالرحمة والغفران ، للمؤمنين الواثقين بعفو الله ، الكافرين بذنوبهم ، القاصدين الا يعودوا الى ما فات : «اذهبي ولا تعودي تخطئين» (يوحنا ٨ : ١١) ، اما من اصرّ على عناده « وجدّف على الروح القدس فلا يغفر له » (متى ١٢ : ٣٢) . وان كان تعليم الانبياء وتعليم المسيح في التوبة هو هو ، ففي موقف الانبياء والمسيح من التائبين فرق . الانبياء يدعون الخطأة الى التوبة ، اما

المسيح فيقبل توبتهم . الانبياء يحثون الخطأة على التماس الغفران من الله ، اما المسيح فيمنح التائبين الغفران ، « لان ابن البشر ، له سلطان على الارض ان يغفر الخطايا » (مرقس ٢ : ١٠) .

والمسيح علم رسله تعليمه ، واظهر لهم مثله ، ووكل اليهم سلطانه. اليهم وكل سلطان « الحل والربط » (متى ١٨ : ١٨) ، «سلطان مغفرة الخطايا » (يوحنا ٢٠ : ٢٣) ، مؤكداً لهم ان ما يحلونه او يربطونه على الارض يحل او يربط في السماء ، امام الله . وبالمثل ، بما عرفوه من رحمته ، علمهم حسن استعمال هذا السلطان . على انه لم ينف كل حالة تضطرهم الى ضبط المغفرة ، « ولو بعد سبعين مرة سبع مرات» (متى ١٨ : ٢٢) لان « من لا يسمع للبيعة يجب ان يعتبر كوثني وعشار» (متى ١٨ : ١٧) . وعلى هدي تعليم المسيح ومثله سار الرسل ، فحلوا او ربطوا ، باسم الله ، وفقاً لاستعدادات الخطأة .

وقد شهد سفر « الاعمال » بان الرسل غفروا للمهتدين خطاياهم بالعماد (اعمال ٢ : ٣٧–٣٨ ؛ ١٠ : ٢) على اننا قلما نجد ، في العهد الجديد ، نصاً واضحاً ، يدل على ان الرسل استعملوا سلطان الحل والربط ، بحق المؤمنين ، الساقطين في الخطيئة ، بعد العماد . وربما كان اوضح نص ، في هذا الباب ، ما ورد في رسالتي بولس الى اهل كورنتية ، عن حادث الزنى ، من ان الرسول « حكم باسم الرب يسوع ... بان يسلم مثل هذا الى الشيطان ... » (١ كور ٥ : ٣–٤) وان الرسول عينه قد غفر له ، بعد توبته (٢ كور ٢ : ١٠) . ولكن عدم وجود النص الشاهد باستعمال سلطان الحل ، او عدم وجود الامر

الداعي الى استعماله ، لا ينفي وجوده ، لان كلام المسيح صريح ، لا اشكال فيه[1].

واغلب الظن ، ان الكنيسة ، في عهدها الاول ، قلما استعملت هذا السلطان . ذلك ان الاهتداء الى الايمـان كان يفرض من التضحيات مـا ابعد الفاترين ، ولم يسمح بدخول غير الاقوياء بالروح ، المستعدين للثبات على العهد . على ان ذلك لا يعني ان الخطيئة لم تكن موجودة في ذلك العهد السعيد ، فالبشر بشر ، والشيطان شيطان ، وقد وردت ، في النصوص الباقيـة من القرن الثاني ، تلميحات تشير الى مصالحة الخطأة « بوضع اليد » ، الامر الذي يدفع الى الترجيح بان المقصود « بوضع اليد » ، في وصية بولس الى تلميذه تيموتاوس : « لا تبادر الى وضع يديك على احد ولا تشترك في خطايا غيرك » ، انما هو منح غفران الخطايا ، لا منح سلطان الكهنوت (١تيموتاوس ٥ : ٢٢)[2] .

واغلب الظن ايضاً ان المناسبة التي فتحت مجالاً لمباشرة سر التوبة هي تلك التي وفرتها تقدمة جسد الرب ومناولته . فمعلوم من وصية

---

١) ان ما ورد في الرسالة الى العبرانيين، من انه « لا يمكن ان يتجدد ثانية بالتوبة . . . من انيروا مرة وذاقوا الموهبة واشتركوا في الروح » (عبر ٦ : ٤-٧) لا يعني ، في نظر الشرّاح ، سوى تعذر توبة الجاحدين ، لتحجر قلبهم .

٢) كان « وضع اليد » في القديم اشارة الى استنزال الروح القدس على اشكال شتى : « التثبيت » في الايمـان ، الانتداب الى « الكهنوت » ، المصالحة في « التوبة » .

السيد المسيح ومن تذكير بولس الرسول ، ان من واجب المؤمن ، قبل تقديم الذبيحة ، ان « يصالح اخاه » (متى ٥ : ٢٤) وان عليه بالتالي « ان يختبر نفسه » (١ كور ١١ : ٢٨) الذي معناه ان يفحص ضميره ، ومعلوم ايضاً من « تعليم الرسل الاثني عشر » ان هذه الوصية كانت نافذة، اذ يقول الكتاب المذكور : « لدى اجتماعكم، يوم الرب ، اكسروا الخبز واشكروا بعدان تكونوا اعترفتم بخطاياكم... » (١٤ : ١–٢). فلا يستبعد اذن ان يكون المؤمنون، بمناسبة اشتراكهم في الذبيحة ، وتناولهم جسد الرب ، اخذوا « يعترفون بخطاياهم » ، ان لم يكن اعترافاً تفصيلياً ، فاعترافاً اجمالياً مشفوعاً باستغفار من الاخوة ومن الاسقف ، الامر الذي لم تندثر اثاره حتى اليوم ، في بعض المناطق[١].

وهذه المناسبة عينها هي التي ادت مع الزمن الى فصل الخطأة وحل التائبين ، من المؤمنين . كانت شركة جسد الرب للابرار ، وكان على المؤمن ان يختبر ذاته . وعليه فمن من كان المؤمنين قد اشتهر اثمه ، انسحب طوعاً من الشركة ، او فُصِل بحكم السلطة[٢] حتى يُقلع عن اثمه ويكفّر عنه . واول الاقلاع عن الاثم هو ، بطبيعة

١) يذكر المتقدمون ان المؤمن ، قبل اقترابه من مائدة الخلاص ، يلتفت الى الاخوة طالباً الغفران . وجميع الطقوس حفظت نوعاً من «الحلة» في البركة التي قبل المناولة .

١) راجع ١ كور ٥ : ١١ ، حيث يحث بولس المؤمنين على الا «يخالطوا» او « يؤاكلوا » الخطأة . وهذه المخالطة والمؤاكلة ، اقل ما تكون ، في « عشاء الرب » .

الحال ، الاعتراف به ، ومن الطبيعي ان يؤدي هذا الاقرار الى سرد الواقع . من هنا نشأ الاعتراف اي الاقرار بالخطايا ، ومن هنا يتبين معنى الاعتراف الاصيل اي الدلالة على التوبة .

على ان الكنيسة ، حرصاً منها على سلامة « الشركة » ، كانت تختبر قصد التائب قبل قبوله . وان كان الاعتراف بالذنب دليلاً على التوبة ، فالتكفير عنه برهان على استقامة القصد وصدق الندامة . ولذلك كان التائبون ، قبل المصالحة ، يقومون باعمال التكفير ، ووفاء الكفارة المفروضة تعويضاً ، حتى اذا ما استقام العدل ، اعيد المقطوع الى القطيع ، « وحل » الخاطئ من القيد الذي يحرمه من الشركة . وهذا « الحل » على الارض ، امام الكنيسة ، هو عنوان الحل ، في السماء ، امام الله ، بموجب السلطان الذي منحه المسيح لكنيسته .

كان على المؤمن ان يختبر ذاته ، وليس من النادر ان يتبين الانسان في ذاته اثماً يحرمه قبول جسد الرب ، وان مكتوماً على الناس . او تفرض عليه رغبته في مصالحة ربه تشهير ذاته امام الناس ؟ وان كان ذنبه من الذنوب التي يُعاقَب عليها امام قانون الدولة ، او تفرض عليه رغبته في مصالحة ربه ، التعرض لملاحقة القانون المدني ؟ ان وقوع الخطأة ، التائبين ، في مثل هذا المأزق ، دفعهم الى الاعتراف بذنوبهم المستورة ، « سراً » الى سلطة الكنيسة . ولم تجد السلطة الكنسية من المحبة في شيء ، ان تفرض عليهم اعلان ذنوبهم وتشهير ذواتهم ، ولو امام الاخوة فقط . ورأت ان اطلاعها هي سراً على الذنوب ، وقبول التائب الكفارة وقيامه بها دليل كاف

على التوبة . ولذلك اكتفت بسماع الاعتراف السري ، وفرضت على المعترف الانضمام الى صف « التائبين » القائمين باعمال التكفير ، دون اعلان اثمه حتى اذا ما قام بالكفّارة حـلّ وقـبل في «الشركة». ومن هنا نشأ الاعتراف السري .

وكان مع الزمن ان جرى النوعان معاً : التوبة عن الخطيئة المشتهرة او المعترف بها علناً ، والتوبة عن الخطيئة المستورة المعترف بها سراً . وايا كان نوع الاقرار كان التكفير يجري على الجميع . واعمال التكفير كانت تطول او تقصر ، حسب الآثام . وكانت تستمر مدة من الزمن من سبعة ايام ، الى سبعة اسابيع ، الى سبع سنين ، الى العمر احياناً . وكانت اعمال التكفير على انواع شتى من الصلاة ، الى الصوم ، الى الصدقة ، الى غيرها من اعمال التقشف وكبح الشهوات . وكان من الطبيعي ان يشعر الخطأة بدافع التوبة ، فيما كانت تستعد الكنيسة لتجديد ذكرى الفداء ، في عيد الفصح ، وان يكون « الزمن المقبول » للتوبة ، الزمن السابق للفصح . ومن هنا نشأ « الصوم الخمسيني » الذي تقام فيه تمارين التوبة مدة سبعة اسابيع .

ولم يفعل دافع التوبة استعداداً للفصح ، في الخطأة وحدهم ، بل حث جميع المؤمنين — وكل مؤمن يشعر باثمه بمقدار رسوخه في الايمان — على الاشتراك في اعمال التكفير ، امتثالاً بمن كفّر عن الجميع . ولذلك وبروح التوبة والزهد ، اخذ المؤمنون ، وعلى رأسهم الصلاح ، في فاتحة الخمسين قبل الفصح ، يذرّون على رؤوسهم الرماد ،

ويلبسون المسوح ، ويصومون ، ويتصدقون ، معلنين بذلك توبتهم عن خطاياهم وتكفيرهم عنها . وفي نهاية اعمال التكفير ، كان التائبون يتقدمون من الاسقف ملتمسين الغفران وقبولهم في « الشركة » ، وكان الاسقف يضع يده عليهم ويباركهم ، طالباً من الله ان يغفر لهم ويقبل كفارتهم .

سبقت الاشارة الى قلة الشواهد عن استعمال سر التوبة ، التي تفترض قلة استعمال السر عينه . ذلك ان الخطايا التي نسميها عرضية قلما كان يعترف بها المؤمنون ، لانها لم تكن تحرمهم من الشركة . اما الخطايا التي نسميها مميتة ، فقد كانت عَلى نوعين ، بعضها كانت الكنيسة تحل منها ، وبعضها وهي « الكبائر » لم يكن من العادة ان يصفح عنها ، في العصور الاولى ، وهذه « الكبائر » كاثم الكفر والقتل والزنى ، احدث الحل منهـا لاول مرة ضجة في اوساط « المتزمتين » ، لانهم رأوا في ذلك مجاراة لتيار الفساد . ولكن الكنيسة التي « تعلم ما في الانسان » والتي تعلم ان رحمة الله اعظم من آثـام الناس ، لم تمسك الغفران على التائبين الصادقين ، مهما عظمت آثامهم . وقد حملها على هذا التصرف ، ما مر على المؤمنين من ظروف قاسية خففت من مسؤوليـاتهم . تلك الظروف هي ظروف الاضطهادات . فالاضطهادات خلّفت للكنيسة جحـافل من الشهداء ، ولكنها خلفت ايضاً عدداً لا يستهان به من الجاحدين ، اولئك الذين جحدوا ايام الشدة ، ولم يقووا على مجابهة التعذيب والاستشهاد . وقد شفقت الكنيسة عليهم لانهم لم يجحدوا عن تعنت

وكبرياء ، بل عن ضعف وخوف ، ولانها تعلم ان الاستشهاد نعمة من الله . ولذلك عندما هرعوا اليها ، بعد الزوبعة ، نادمين ،لم تتمالك عن منحهم الغفران . وقد ادى هذا الامر الى ما اشرنا اليـه من نتيجة ، اي الى الحل من « الكبائر » ، كما ادى الى نتيجة اخرى وهي الحل اكثر من مرة في العمر . على ان التوسع لم يكن عن مجاراة لتيار الفساد ، كما زعم البعض ، لان الكنيسة ، فيما لم ترفض الحل ، كانت في الوقت عينه ، تقسو في فرض الكفارة ، لافتـة نظر المؤمنين ، في وقت معاً ، الى عظم رحمة الله وفظاعة اثم الخاطئ . ومن آثار هذه القسوة ، احجام بعض الناس ، مع اقتناعهم بصحة دين المسيح ، عن قبول العماد الى يوم الممات ، كما هو مشهور عن الملك قسطنطين .

وادى الى منح الحلة اكثر من مرة في العمر ، انتشار عمـاد الاطفال على اثر استقرار المجتمع المسيحي . ذلك ان من اهتدى راشداً بعد توبة شخصية كان احفظ لواجباته من الولد ، الذي لم يخبر ما في اعمال التوبة من قيد رادع عن الشر ، سيما اذا كان هذا الولد ممن لم تتأصل فيهم بعد الاخلاق المسيحية ، اباً عن جد . وقد كان الامر كذلك في الغرب ، ايام زحفت عليه شعوب البربر . ورأت الكنيسة بحكمتها آنذاك لا ان تتمسك بالقسوة الاولى وتحرم الناس نعمة الله ، بل ان تجعل سر التوبة واسطة — وانه لكذلك — لتدريب المؤمنين على سنة الخير ، وتدميث اخلاقهم ، وتهذيب نفوسهم ، الامر الذي ادى الى الاكثار من استعمال سر التوبة .

وليس في ذلك حرج لان الاسرار انما هي للناس .

ووفقت الكنيسة في تنصير البربر ، ونما بينهم الايمان ، كما نمت في الكنيسة ، شرقاً وغرباً ، روح النسك ، فقامت الصوامع والاديار . ومعلوم ان الرهبان قوم وقفوا العمر على التوبة عن الذنوب ، وان من سننهم كشف الضمير والاسترشاد . وكان من عادة الرهبان ان يستغفروا رئيسهم عن كل اثم ، ولو طفيفاً ، ويسألونه ان يفرض عليهم كفارة عنه . وهذا الاستغفار كثيراً ما كان ، عن الذنب المستور ، بين المرؤوس والرئيس ، سراً ، وعلى هذا لم يلبث الاعتراف السري بالخطايا العرضية ان جرى عادة عند الرهبان . وكان بين المؤمنين والرهبان ، في القديم ، ما لا يزال بينهم اليوم من اتصال وتفاعل . فالاتقياء من المؤمنين يأخذون عن الرهبان عباداتهم وعاداتهم ، والغُيُر من الرهبان لا يأنفون من تعويد المؤمنين ممارساتهم التقوية ، وعلى هذا لم يلبث الاعتراف السري بالخطايا العرضية ، ان جرى عادة بين المؤمنين الورعين ايضاً ، كما كان عند الرهبان . وقد ساعد على انتشار العادة صلاحها وحاجة المؤمنين العفوية اليها . ففي الاقرار بالذنب ، فرج مما كان من ضيقة ، وحماية مما قد يكون من خطر ، هذا في الطبع ، فكيف اذا سند الطبع عفو من الله وعون . وكان اذن ان عم الاعتراف بين المؤمنين ، فأخذوا يلجأون الى الكهنة ، فيعترفون بذنوبهم ويسألونهم فرض الكفارة عنها ، والحل منها .

وتسهيلاً لمهمة الكهنة وضعت كتب للتوبة ، اشبه ما تكون بدليل المعرفين ، تفصل الذنوب وتعين الكفارة المقابلة لها ، او ما

يمكن ان تستبدل به الكفارة من اعمال البر . وقد كثرت هذه الكتب في الغرب في القرنين الثامن والتاسع . ولا شك في انها ادت في تلك الايام الخدمة التي ادتها فيما بعد ، بنوع اوفى ، كتب الذمة ، او ما نسميه اليوم اللاهوت الادبي .

وعندما اخذ المؤمنون يقبلون ، بكثرة ومن تلقـــاء ذواتهم على الاعتراف بخطاياهم حتى الخفيفـــة ، رأت الكنيسة ان تخفف من تشديدها في مراقبة التكفير ، بل ان تعهد للتائب بالقيام بالكفارة ، ثقة منها ان من اقبل، مختاراً ، على الاعتراف، لن يتنصل من تتميم الكفارة ، ولذلك اكتفت بالتثبت من حسن استعداده ، ولم تعد ترجئ الحل الى مـــا بعد تتميم الكفارة ، الا لداعي التثبت من استقامة النية وثبات القصد . وعلى هذا جرى استعمال سر التوبة ، على نحو ما هو اليوم ، ولا سيما بمناسبة الاعياد الفصحية .

ولحظت الكنيسة الفائدة من ممارسة سر التوبة لانماء الفضيلة ، كما لحظت تفشي الفتور والشرور ، بين من اعرض عن هذا السر . ولذلك رأت ان تضع قاعدة تحدد اقل ما يجدر بالمؤمن ان ينتفع به من خير هذا السر ، حتى يحافظ على حياته المسيحية ، فعممت ، في المجمع اللاتراني الرابع ، سنة ١٢١٥ ، شريعة الاعتراف والمناولة الفصحية التي كانت سنتها بعض المجامع المحلية . وقد جدد المجمع التريدنتيني هذه الشريعة ، وعنه اخذها مجمعنا اللبناني . على ان المجمع اللبناني حث المؤمنين على المزيد ، مثنياً بذلك على العادة الجارية في طائفتنا ، وهي اقتراب المؤمنين من سري التوبة والاوخارستيا اقله

« ثلاث مرات في كل عام اي في عيد الميلاد والقيامة والعنصرة[1] » .

هذه هي عادة الكنيسة في ممارسة سر التوبة من الاجيال الاولى، ومنها نستخلص الاسس العقائدية في هذا السر . وهي ان لا غفران بلا توبة، وان الاقرار ضروري بما هو دليل على التوبة وشرط للحكم وشرط للمداواة . وان الكفارة ضرورية ايضاً بما هي دليل على استقامة القصد في الرجوع عن الاثم والتعويض عنه . لكن هذه الافعال من ناحية التائب لا تثمر ما لم تحيها حلة الكاهن التي تُمنح باسم الله وسلطانه .

اما ما نفيده من تاريخ السر وقلما يظهر في ممارستنا له اليوم ، فهو علاقته بالكنيسة : التوبة هي باب الكنيسة الحية ، على نحو ما كان العماد . بالعماد يدخل الاغراب ، وبالتوبة يعود الناشزون . والكنيسة هي جسد المسيح الحي ، لا مصالحة مع الله الا بها وفيها . الكنيسة جماعة اعضاء المسيح ، الذين يقتاتون بجسده ، والخاطئ اشبه شيء بالعضو المشلول ، الميت .

هذا من ناحية الاعمال ومعانيها . اما صيغة الصلوات فلا شك في انها قد تطورت بعض التطور ، ولا سيما صيغة الحلة . فالحلة تمنح اليوم بصيغة حكم ، اقله في الكنيسة الكاثوليكية . ولكنها في القديم كانت بصيغة الطلب . الكاهن يلفظ الحكم اليوم بصيغة المتكلم : « انا احلك باسم الآب والابن والروح القدس ... » وقديماً كان يطلب الى الله ان يحل التائب : « ليحلك ... » وبهذه الصيغة

١) الشرتوني : المجامع المارونية ، مجمع ضيعة موسى عدد ٧ .

ما زلنا نوطىء للحكم ونختمه . وقد طرأ هذا التغيير على صيغة الحل ، يوم اوضح البحث اللاهوتي ، ان منح الحلة انما هو اصدار حكم باسم الله ، لا استشفاع فقط ، كمـــا كان يخشى ان تؤول الصيغة القديمة . اما الاقرار التفصيلي ، فيمهد له « بفعل الاعتراف » وهو صيغة اعتراف عام ، تنبه التائب الى انه يعترف بذنوبه امام « الله وقديسيه » لا امام الناس ، وان خطيئته ، وان خفيفة ، « عظيمة جداً » لان كل اهانة من جانب العبد نحو الله ، هي ، في نظر الايمان ، خطيئة عظيمة جداً . ولعل فعل الاعتراف هذا يرقى الى اقدم العصور .

على ان سر التوبة ، كما بدا لنا في هذا العرض التاريخي ، هو ابعد ما يكون عن العمل الآلي الذي كثيراً ما نختبره في المؤمنين او نقع فيه . وان كان ثمة من ثمرة عملية يجمل بنا ان نسعى الى جنيها من هذا البحث ، فهي ان نعمل بتعليمنا ، خارج السر وفيه ، كي يستعيد السر مكانته الدينية الحقيقية ، فيصبح توبة خالصة تقوّي فيها نعمة الله ارادة الانسان على التملص من الشر والنمو في الفضيلة .

مسحة المرضى

لدينا ، عن مسحة المرضى ، في العهد الجديد ، نص وحيد فريد ، هو نص القديس يعقوب ، في الفصل الخامس من رسالته .

يوجه الرسول الى المؤمنين ، في نهاية رسالته ، بعض نصائح ، لايام الفرح وايام الشدّة . ومن ايّام الشدة ، وقت المرض ، حيث يكون الانسان احوج ما يكون الى عون الله والتفات القريب .

يقول الرسول : « هل فيكم مريض ؟ فليدع كهنة الكنيسة ، وليصلّوا عليه ، ويمسحوه بالزيت ، باسم الرب ، فان صلاة الايمان تخلص المريض ، والرب يُنهضه ، وان كان قد ارتكب خطايا تغفر له » (٥ : ١٤–١٦) .

هذا هو النص ، وهو واضح غامض ، في وقت معاً .

هو واضح ، ان نحن اخذناه ، كما هو في نية الرسول ، على انه نصيحة موجهة الى مسيحيين ، يعرفون العادة الجارية بينهم بمسح المريض بالزيت ، ولكن الرسول يذكّرهم بواجبهم المسيحي ، وقت المرض ، ويحثهم على عدم اهماله ، مبيّناً لهم الفائدة منه للروح والجسد .

ولكنه لا يخلو من غموض ، ان نحن اخذناه ، كما ليس هو ، على انه نص كتاب توزيع اسرار يُفرض فيه ايضاح طريقة ايلاء

السرّ وظروفه ورتبته . ومن هنا ما كان ، على مرّ الزمن ، من اجماع في الكنيسة على الايمان بالسرّ والاخذ به ، ومن اختلاف في رتبته ودقائق منحه .

وسنستخلص اولا من النص خطوط السرّ الاساسية ثم نلمّ بطريقة ايلائه ، في الكنيسة عامة وفي طقسنا الماروني بنوع خاص.

الخطوط الاساسية للسرّ

قال القديس يعقوب :

— « هل فيكم مريض ؟ » ، ان هذا المريض في شدة ، لانه طريح الفراش ، لا يستطيع التردد الى الكنيسة ، ولذلك يجمل به ان « يدعو الكهنة » الى جانبه ، والرب « سينهضه » من مرضه الذي الزمه الفراش .

— « فليدع كهنة الكنيسة » ، ان واجب دعوة الكهنة يقع على المريض اولاً ، لانه هو المحتاج والمستفيد . فعليه ان يبدي رغبته ، وذووه يبلغون الدعوة . وان قصّر المريض ، دون سوء قصد ، فعلى ذويه ان ينوبوا عنه . اما « كهنة الكنيسة » فهم ، على لغتنا اليوم ، خدمة الرعية ، اياً كان عددهم .

— « وليصلّوا عليه ، ويمسحوه بالزيت ، باسم الرب » ، والرسول لا يذكر نص الصلاة ولا كيفية المسحة ، ولكن هذه امور يعرفها الكهنة ، وكلام الرسول موجه الى المؤمنين ، فلا حاجة الى التفصيل ، بل الاشارة تكفي ، ومن هذه الاشارة يتضح ان « الصلاة » و « المسحة » المذكورتين ، هما عمل طقسي ، معروف ،

له اسمه « المسحة باسم الرب » ، على نحو ما كان العماد يسمّى « العماد باسم الرب » .

— « فان صلاة الايمان تخلص المريض ، والرب ينهضه ، وان كان قد ارتكب خطايا تغفر له » ، ان « صلاة الايمان » اي الصلاة بايمان ، كما يجدر بالمؤمنين ان يصلّوا ، هي « تخلص المريض وتنهضه » اي تنجيه من الشدة وتردّ له العافية ، ولكن لها ايضاً مفعولاً آخر ، وهو مغفرة الخطايا . وقد ذكر الرسول هذا المفعول بصيغة شرطية ، لان كل مريض ليس خاطئاً ، كما كان يتوهم اليهود ، ولا سيما اذا كان المقصود الخطايا الثقيلة ، لان الخطايا الخفيفة ما من احد خلو منها .

هذا مضمون النص ، ومن الواضح انه يشمل عناصر السرّ كلها ، وان تلميحاً ، كما يُنصح العارف ، لا توضيحاً ، كما يُعلّم الجاهل ، ولذلك فقد حدّد المجمع التريدنتيني (الجلسة ١٤ ق ١) ان المسحة التي ذكرها القديس يعقوب هي سرّ المسحة الاخيرة ، الذي تمارسه الكنيسة .

اما نص انجيل مرقس (٦ : ١٣) فهو تهيئة للسرّ لا السرّ بعينه.

طريقة ايلاء السرّ

ليس في نص القديس يعقوب ايضاح واف لطريقة ايلاء السرّ ، والترتيبات الطقسية . ولذلك لا نعجب أن رأينا بعض الاختلاف في رتبـة السرّ ، بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وبنوع اخص بين الروم واللاتين . ولكن هذا الاختلاف في الرتبة لا ينفي الاتفاق على الجوهر ، في كل الكنائس .

فمن الامور الجارية في كل الطقوس ، مسح المريض بالزيت المبارك ، لشفائه ومغفرة خطاياه ، وذلك منذ اقدم العصور ، بل منذ العهد الرسولي ، فالنساطرة انفسهم الذين انشقوا عن الكنيسة الجامعة ، على اثر المجمع الافسسي (سنة ٤٣١) يمسحون المريض بالزيت المقدس ، مثل سائر المسيحيين ، المحافظين على التقاليد الرسولية .

اما الاختلاف ففي الرتبة ، فاللاتين عندهم « المسحة الاخيرة بزيت المرضى » والروم عندهم المسحة « بالزيت المبارك او رتبة القنديل » . والفروق الهامة بين الرتبتين هي هذه :

فزيت المرضى ، عند اللاتين ، يباركه الاسقف ، مرة في السنة ، مع سائر الزيوت المقدسة ، يوم خميس الاسرار ، ثم يوزع على الكنائس ، ويحفظ طول السنة ، ويستعمل وقت الحاجة ، وهذا الزيت هو زيت زيتون صاف .

اما السرّ ، فيمنحه خادم الرعية ، اي كاهن واحد .

ولا يمنحه الا للمريض ، الموجود في شدة او خطر ، وذلك لا اكثر من مرة في الشدة عينها ، وبعد مناولته الزاد الاخير .

ولكنّ الروم ، فما زالوا حتى اليوم يمارسون رتبة القنديل على نحو يبدو من نواحٍ اقرب الى نص القديس يعقوب ومن نواحٍ ابعد .

فالزيت المبارك هو عامة زيت زيتون ، ولكنهم ، في بعض الكنائس ، يمزجون به قليلاً من الخمر[١] .

١) ولعل في ذلك اثراً لمثل السامري ، الوارد في الانجيل - بشأن مسحة المرضى عند الروم راجع مقال جاكميه في مجلة « اصداء الشرق » سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ص ١٩٣ وما يليها .

وهذا الزيت يباركه مانح السرّ ، قبل منحه ، ومانح السرّ ، ليس كاهناً واحداً ، الا عند تعذر وجود السبعة ، او الثلاثة . وبهذا الزيت يمسح لا المريض ، الموجود في شدة ، فحسب ، بل المريض العادي وكل مؤمن ، حتى الصحيح ، لانه لا يخلو ان يشكو من شدة الروح . وهذه المسحة للجميع ، مرضى واصحاء ، تجري يوم اربعاء الآلام ، استعداداً للمناولة الفصحية . من هنا ان الروم لا يطلقون على السرّ اسم « المسحة الاخيرة » بل اسم « المسحة المقدسة » . ورتبة المسحة تتضمن ، عند الروم ، سبعة فصول ، يختم كل منها بمسحة .

من هذه المقابلة بين الطقسين تنجلي الفروق ، واهمها ان الكنيسة الغربية تمسح المرضى ، دون الاصحاء، استعداداً للموت ، وان الكنيسة الشرقية لم تحصر هذا السرّ بالمرضى جسماً وحدهم .

اما من حيث القدم ، فكل من الطقسين قديم ، والطريقة اللاتينية مشهود بها منذ اوائل القرن الخامس ، ولا يصح بالتالي القول بانها تجديد[١]، كما انه ما من ريب في ان مسح الاصحاء هو من باب التوسع ، لانه خروج على نصح القديس يعقوب .

هذا في ما يخص اللاتين والروم المنشقين . وبديهي ان هذا الاختلاف كان من شأنه ان يخلق بعض الاضطراب في رتبة السرّ عند الشرقيين الكاثوليك . فهم من جهة شرقيون ، اي عندهم رتبة

---

١) من عهد البابا اينوشنسيوس الاول ، راجع مجموعة دنزينكر عدد ٩٩

القنديل ، ومن جهة اخرى كاثوليك ، اي متفقون مع الكنيسة الغربية في ما له علاقة بجوهر الاسرار . ولذلك فقد جمعوا في طقوسهم[١] ، بين الطريقتين معاً ، اي انهم احتفظوا برتبة القنديل ، واعتمدوا في منح السرّ ، طريقة الكنيسة الغربية . وان نحن عدنا الآن الى كتاب توزيع الاسرار الماروني وجدنا ، في باب مسحة المرضى :

١ً – رتبة القنديل

يقيمها الكاهن ، على المريض وفي بيته . وهي تتضمن سبع « قومات » ، يتلوها كاهن واحد او اكثر حتى السبعة « اذا اتفق حضور اكثر من كاهن واحد » (ص ١٠٧ تنبيه د) .
وفي نهاية الرتبة يمسح الكاهن بالزيت « المريض . . . وكلاً من المؤمنين الحاضرين » (ص ٢٠٥) .
ولم يذكر الكتاب شيئاً عن القيام بهذه الرتبة يوم اربعاء الآلام ولكن العادة السابقة لا تزال جارية بعلم السلطة ورضاها .
وبيّن ان الجري على هذا المنوال انما هو حفاظ على الطقس الشرقي ، كما هو عند الروم ، اقلّه في الظاهر .

قلت « اقلّه في الظاهر » لان رتبة القنديل عند الكاثوليك لم تعد تتضمن نيّة « منح السرّ » . بل اصبحت مجرّد رتبة تقوية ،

---

١) راجع بشأن رتبة السرّ عند الروم الكاثوليك مقال الاب دربلاد في مجلة Proche-Orient Chretien, سنة ١٩٥١ ص ٨٦

وذلك بموجب تدبير الكنيسة التي لا يمنح سرّ الا وفقاً لنيتها[1].

٢ً – رتبة مسحة المرضى

وقد اثبت الكتاب « طقس تقديس زيت المرضى على يد قسّ » مبقياً بذلك على شريعة المجمع اللبناني، التي تنص على ما يلي: «لما كانت العادة القديمة قد غلبت في طقس الروم وفي طقسنا السرياني ان يبارك الكاهن زيت المرضى، في وقت خدمة سرّ المسحة الاخيرة، وما خلا ذلك فان الاسقف يبارك هذا الزيت مرة واحدة في السنة، يوم خميس الأسرار، رأينا ان نسمح برعاية كلا من الطقسين ونثبت للكهنة سلطان التبريك على هذا الزيت، فيما لو اتفق ان نفد الزيت الذي باركه الاسقف لكثرة استعماله»[2] – وفي هذا الظرف فقط.

اما المسحة بعينها، فبعد الصلوات الابتدائية، التي يجوز الاستغناء عنها « اذا داهم خطر الموت »، يُباشَر فيها بمسح المريض على وجهه شكل صليب وتلاوة الصلاةَ « ايها الآب القدوس، يا شافي الانفس والاجساد ... »

وبهذه المناسبة، يلحظ اولاً التجديد المستحسن في عمل

---

١) ورد في المجمع اللبناني :

« نأمر بان يُعلَن للجميع ... ان مسحة الاصحاء ليست سرًا، وليس لها قوة السرّ وانما هي بركة متمحضة، ولو تمت بزيت مسحة المرضى بعينه...

« وكذلك ننهى نهياً مطلقاً كهنة الرعايا... عن ان يستعملوا في التبريك على زيت القنديل الذي يمسح به الاصحاء للتوبة ما كان من الطقوس والصلوات خاصاً استعماله بالتبريك على زيت المرضى.. » (المجمع اللبناني ص ١٠٢ عدد ٩).

٢) المجمع اللبناني ص ٩٩

المسحة ، اذ تناولت مسحة واحدة جميع اعضاء الرأس ، واستغني عن الطريقة القديمة - الشرقية والغربية على السواء - التي كانت المسحة فيها تُكرَّر (عند الروم) وتتناول اعضاء الرأس وغيرها ، كلاً بمفرده .

وثانياً ان الصورة المثبتة هي الصورة الجارية منذ القديم في الكنيسة الشرقية ، والتي ما زال يستعملها الروم ، مضيفين اليها الاستشفاع بالقديسين الشافين .

٣ - رتبة البركة الرسولية مع الغفران الكامل عند ساعة الموت

وهي رتبة مأخوذة عن الكنيسة الغربية .

هذه هي رتبة مسحة المرضى ، في اصلها القديم ووضعها الحاضر . وقد جمعت ، الى رتبة القنديل الشرقية ، مجردة من معناها الاصيل بسبب ما آلت اليه من التباس في استعمال الروم ، قاعدة الكنيسة الغربية في منح السرّ . وعليه فيمكن اعتبار رتبة القنديل ، في كتاب توزيع الاسرار ، فرضاً استعدادياً يمهّد به (لتبريك مادة السرّ ، عند الاقتضاء) ومنحه . وهي تتضمن من الصلوات والقراءات ما ليس اجمل واكثر منه ملاءمة لوقت الشدة او النزاع[1] . اما رتبة المسحة بعينها فقديمة اصيلة ووجيزة لائقة .

---

١) ان تأفف البعض من طولها في غير محله ، لان الروبريكة اشارت الى امكان الاستغناء عنها ، بكاملها او جزئياً ، في الخطر المباشر .

الزواج

الزواج مؤسسة طبيعية غايتها حفظ النسل والتعاون على الحياة . ووسيلة الزواج الحب ، الدافع الى المعاطاة الجنسية . والحب ، بين البشر ، ليس مجرد استسلام آلي لغريزة الجنس ، بل عملاً شخصياً واعياً ، له كرامته وقدسيته ، ولذلك لا نرى مجتمعاً الا احلّ الزواج في منزلة خاصة ، ولا نرى ديناً الا وضع يده عليه وكرّسه . وما كان ذلك عن قصد مفتعل ، بل نتيجة لميل طبيعي عفوي في البشر . وقد كان من فعل هذا الميل ان احيط الزواج ، في تاريخ الشعوب على اختلافها ، بسور من القوانين والمراسم والحفلات حماية لسلامته ودلالة على شرفه وقدسيته .

ولما كان الغرض من هذا البحث شرح طقس الزواج المسيحي ، كما تجلّى في كنيستنا المارونية ، لذلك كان لا بد من رجعة الى البيئة التي وُلد ونما فيها دين المسيح ، — وهي البيئة اليهودية ثم الرومانية ، — لنتبين ما كانت عليه فيها اوضاع الزواج ، ومقدار تأثر الاوضاع المسيحية بها . وعليه سيتناول بحثنا نقطتين : ١ً — اوضاع الزواج خارج دين المسيح — ٢ً — اوضاع الزواج في دين المسيح . على اننا سنحصر بحثنا في الناحية الطقسية وحدها .

١ - اوضاع الزواج خارج دين المسيح

ان المراسم والحفلات التي احاطت بالزواج تجمعت حول مرحلتين اساسيتين في الحياة الزوجية هما التراضي على الزواج ومباشرته.

التراضي

بينما نرى الزواج ، عند الحيوان ، مجرّد جماع عابر نقال ، بين ذكر وانثى ، نراه عند بني آدم ، مؤسسة قائمة على تبادل الرضى بين شخصين حول تأسيس عيلة . وهذا التراضي ، بميزاته المعلومة ، عنيت الوحدة والديمومة ، وان لم يتعذر ايلاد البنين بدونه ، فهو مع ذلك في عرف البشر اساس لا غنى عنه . وعلى هذا الاساس وحده تجوز ، في نظر سليمي الوجدان من الناس ، المعاطاة الجنسية ، وتوصم ، خارجاً عنه ، بوصمة العار والاثم .

ولذلك اقتضى الا يبقى هذا التراضي سراً بين الطرفين ، بل ان يتخذ مظهراً اجتماعياً وصيغة رسمية قانونية . ولن يتخذ هـذا المظهر الاجتماعي وهذه الصيغة الرسمية ، ما لم يعبر عنه بشتى وسائل التعبير ، امام شهود وامام ممثل السلطة . اما وسائل التعبير فهي القول والفعل والكتابة . وسنعرض بايجاز كيف عبّر عن الرضى الزواجي ، قولا وفعلاً وكتابة ، دون ان نتعثر بالتحصينات التي كانت تكتنف في بعض المجتمعات صلات الرجل بالمرأة .

- التعبير عن الرضى بالقول

النطق اوضح وسائل التعبير ، وكان لا بد من استعماله في موضوع الزواج . ولذلك كان يحضر الشاب بذاته ، او اغلب الاحيان بواسطة

وكيل عنه » الى بيت اهل الفتاة ، ويبدي اليهم رغبته ، امام شهود من ذوي الطرفين ، وكانت الفتاة تبلغ الرغبة وتجيب عليها عادة بالايجاب . وحيث لم تكن تراجع الفتاة مباشرة بالامر ، سواء لصغر سنها او لداعٍ آخر ، فذلك لأن الفتاة المثلى ، في البيئات القديمة ، كان يفرض فيها انها لا تخرج على ارادة والديها . وجواب الوالدين كان في العرف الجاري ، وتجاه الطرف الآخر ، جواب صاحبة العلاقة عينها.

– التعبير عن الرضى بالفعل

الكلام بحدّ ذاته قاطع ، ولكن المجتمع فرض على اعضائه ولا سيما في الاعمال التي ينتج عنها مسؤولية اجتماعية ، تعبيراً بالعمل ، شكلياً ورمزياً ، دفعاً لكل تأويل او التباس قد يطرأ على النطق. وكان يعبّر عن الرضى الزواجي تعبيراً عملياً بجمع يميني صاحبي العلاقة ، وذلك بأن يُسلِّم شخص مسؤول ، في العيلة او في المجتمع او في الدين ، يمين الفتاة الى الشاب بيمينه . ومن هنا التعبير الذي ما زال جارياً حتى اليوم « طلب يمين فلانة » اي طلبها للزواج . والتعبير جارٍ في اكثر من لغة ، وفي ذلك دليل على تأصله في مفهوم الناس ونطقهم.

وقد كانت هذه العادة جارية عند اليهود. فالكتاب المقدس ينبئنا بأن « رعوئيل اخذ بيمين ابنته ساره وسلّمها الى يمين طوبيا » (طوبيا ٧ : ١٥) ، وكان لهذه الاشارة معنى هام من حيث الارتباط ، ولذلك كان يدعى عليها اسم الله تبركاً ، وقد ذكر الكتاب في الموضع عينه دعاء رعوئيل : « إله ابرهيم وإله اسحق وإله يعقوب يكون معكما وهو يقرنكما ويتم بركته عليكما ».

ومثل ذلك كان جارياً عند الوثنيين الرومان . وقد حُفظت عن عهد الرومان نقوش ترينا العروسين وقد اخذ احدهما بيمين الآخر بحضرة الزُهَرة او ترينا جونون وهي تسلم الفتى يمين الفتاة .

وفي ذلك دليل على ان الرضى الزواجي ، كان على مثال سائر العقود[1] ، يعبَّر عنه تعبيراً رمزياً بالفعل ، وكان له علاوة على سائر العقود ، صفة دينية ، بحيث يقام بحضرة الالهة او يدعى عليه اسم الله.

ولم يكتفوا ، في التعبير عن التراضي بجمع اليدين ، بل استعملوا ولا سيما عند الرومان ، اشارة اخرى ، وهي تسليم الخاتم . فقد كان الخطيب يقدم الى الخطيبة حلقة مذهبة او من ذهب ، ويضعها في اقرب الاصابع الى الخنصر ، من اليد الشمال ، قاصداً بذلك انه يعرض عليها امانته لها ، وهي بقبولها الخاتم ، كانت تدل على انها راضية بوقف ذاتها عليه . وقد وجد القدماء تفسيراً للاشارة فقالوا : انما يوضع الخاتم في هذه الاصبع لأنها تتصل بالقلب بعرق خاص . ومع الزمن ، ولا سيما في العهد البيزنطي ، ازدوج الخاتم ، فأصبح لكل من الطرفين خاتمه ، ولعل في ذلك اشارة الى «تبادل» العهد.

– التعبير عن الرضى بالكتابة

ولم يكتفوا للتعبير عن الرضى بالقول والعمل ، بل عبروا عنه كتابة . وانه لمن الحكمة ان يدوّن كتابة عقد يقطع على انه دائم لا

---

١) معلوم ان بعض العقود لم تكن قاطعة الا « بوضع اليد » ، وان عقد البيع ، عند الرومان مثلًا ، كان يتم ، علاوة على الاتفاق ، بأن يسلّم البائع الشاري حفنة من تراب الارض التي باعه اياها .

رجعة عنه ، وفي النقوش المحفوظة من عهد الرومان ، رسم «الملف» من الرَق ، الذي كان يُرقم عليه العهد ، وكثيراً ما كان يذكر في الكتابة ما يقدمه الخطيب الى خطيبته من التقادم ، وما كان والد الخطيبة يقدمه لها بمناسبة خطبتها ، والتحاقها قانوناً باسرة غير اسرته.

ومجمل هذه المراسم كان يدعى «الخطبة» ، ومعناها ان عهداً بالزواج قام بين الخطيب وخطيبته بحيث لم يعد هو ينظر الى غيرها ولا هي تنظر الى غيره ، ولا غيرهما ينظر اليهما . وكان ذاك العهد يعتبر قائماً بصورة نهائية ، لا على سبيل الاستعداد او بمثابة مجرد وعد بزواج ، كما نفهم الخطبة اليوم . وان نحن قابلنا بين الخطبة عند الأقدمين – ولا سيما اليهود – وبين اوضاعنا القائمة ، وجدنا «خطبة» الأقدمين اقرب الى عقد الزواج عندنا منها الى الخطبة ، والفرق بين خطبة الاقدمين وعقد الزواج ، في مفهومنا اليوم ، هو ان الخطبة لم تكن تخوِّل المساكنة بين الخطيبين في الحـــال ، بل ترجىء هذه المساكنة الى مدى من الزمن ، محدود او غير محدود ، ينتهي بحفلة « الزفاف » او نقل الخطيبة الى بيت خطيبها . وليس ادل على ذلك مما ورد في الانجيل عن يوسف ومريم . فمريم كانت « مخطوبة » ليوسف ، اي كان معروفاً عنها انها له دون سواه ، وان كانا بعد لم يسكنا معاً ، ولذلك عندما حبلت وعـُرف امرها ، قلق يوسف ، و«هم بتخليتها » كي يتبرأ مما قد توصم به ، امام القانون وفي عين الناس ، ولكن ملاك الرب طمأنه قائلاً : « لا تخف ان تأخذ امرأتك » اي لا تخف ان تأخذها الى بيتك ، لأنها ليست بخائنة . وبعد هـــذا

التأكيد العلوي اقدم يوسف على المرحلة الثانية في تأسيس العيلة. وهي اخذ امرأته الى بيته[١].

الزفاف

ان الخطبة، وان وقفت الخطيبة على خطيبها، لم تكن تخولهما المعاطاة الزوجية. وكما ان التراضي كان مفروضاً فيه ان يُعلَن بصيغة قانونية، كذلك كان مفروضاً في المساكنة ان تباشر بحفلة علنية: تلك كانت حفلة «الزفاف».

لم يكن الزفاف يتبع الخطبة مباشرة، بل كثيراً مـــا كان يتأخر عنها، في البيئات القديمة، اشهراً بل اعواماً، لما هو معلوم من ان الخطبة، عند الاقدمين، كثيراً ما كانت تعقد بعناية الاهل. وصاحبا العلاقة ما زالا قاصرين.

ولكن، وسواء طال الأجل ام قصر، لم يكن الخطيب يساكن خطيبته الا بعد نقلها الى بيته بحفلة عائلية دينية. وهذه الحفلة كانت، ولا شك، على مبلغ كبير من الزينة والفرح. ولو لم يكن لنا من دليل على ذلك الا رواية عرس قانا الجليل ومثل العذارى لاكتفينا بهما، وعرفنـــا منهما ان الخطيب كان يذهب مع ذويه الى بيت الخطيبة، فيأتون بهـــا، مجلوّة مزيّنة، حتى اذا قربوا من دار الخطيب «صارت الصيحة» وخرج المدعوون، بما فيهم العذارى،

---

١) من آثار هذا الوضع، في الشرع المسيحي (القديم) ان الزواج كان يعتبر قد وقع وتم فيما اذا حصلت المجامعة بين الخطيبين.

يستقبلون العروسين ، عـــلى اضواء المصابيح . وكانت تقام بهذه المناسبة وليمة العُرس .

ومن عادات الرومان ، بمناسبة الزفاف ، ان لا يأخذوا العروس الى بيت عروسها الا بعد ان يذهبوا بها الى الهيكل ويقدموا الذبيحة ويستشيروا الآلهة ، حتى اذا ما كان الجواب « باليمن » قالت الخطيبة لخطيبها « حيث انت ، انا » وردد الجميع : «هنيئاً ! » .

ومن عاداتهم ايضاً ان يلبسوا الخطيبة ثوباً طويلاً ، تضمه الى خصرها بزنار وان يضعوا على رأسها اكليلاً من زهر « الليمون » او غيره ، وان يغطوا العروسين وهما في الهيكل بوشاح ، على رأسيهما .

اما اليهود ، فلم تكن عادة التكليل غريبة عنهم ، فقد ورد في نشيد الاناشيد : «اخرجن يا بنات صهيون ، وانظرن الملك سليمان بالتاج الذي توجته به امه في يوم عرسه» (نشيد ٣ : ١١) وهو تاج لم يخص به سليمان ، لانه ملك ، بل كان يتوج به كل عروس ، فقد ورد في اشعيا ايضاً : « اني اسر سروراً في الرب ... لانه شملني برداء البر كالعروس الذي يتعصّب بالتاج وكالعروس التي تتحلى بزينتها . . » (اشعيا ٦١ : ١٠).

هذا اهم ما نلحظه من مراسم الزواج سواء عنـــد اليهود او عند الرومان ، اي في البيئة التي ولد فيها المسيح ، ونما فيها الدين المسيحي . وقد حفظ الدين المسيحي اهمها .

٢ً - اوضاع الزواج في الدين المسيحي

ان المسيح اعاد الى الزواج مكانته السامية ، وقوّم ما اعوجّ من اوضاعه ، ورفعه الى درجة سرّ ، اي لم يكتفِ بأن يعوّض عن

تبعات الزواج بما بين الزوجين من حب طبيعي ، بل منحهما ، علاوة على ذلك ، نعمة خاصة ترافقهما مدى الحياة ، ما داما مرتبطين بوثاق الزواج ، وتمكنهما لا من استخفاف نيره فحسب ، بل من البلوغ الى القداسة ، عن طريقه . وعندمـــا ذكـر المسيح اليهود بشريعة الزواج الاولى ، التي لا متسع فيها للطلاق ، واستصعبها التلاميذ انفسهم ، اجاب يسوع قائلاً : « ما كل احد يحتمل هذا الكلام الا الذين وُهب لهم » (متى ١٩ : ١١) ، ومعناه ان نعمة خاصة من الله توهب للمؤمنين كي يحتملوا ، بعون الله ، ما لا يقوى على احتماله طبع البشر .

ولكن المسيح لم يضع للزواج طقساً جديداً ، ولم يكن بحاجة الى ذلك . والكنيسة ، بعده ، اكتفت ، بأن توجه مراسم الزواج ، التي لا اعوجاج فيها ، صوب الله ، وان تكرِّسها بصلاتها ، فتصبح هذه الطقوس عينها «سرِّية» ، قابلة لأن توفر للمؤمنين النعمـــة التي اشار اليها المسيح . ولذلك فهي لم تـُقتلِـع عن العادات المستساغة الجارية عند اليهود او الرومان ، بمناسبة الخطبة والزفاف ، بل نفحت فيها روحاً مسيحية ، ومعنى سامياً ، و«بلـّدتها» في تربتها الجديدة . من ذلك ما نراه ، في باب الخطبة ، من بقاء تبادل الرضى بالقول ، وجمع اليدين امام شهود وامام ممثل السلطة ، ووضع الخاتم ، وتدوين الخطبة كتابة . وفي باب الزفاف ، ما نراه من تكليل العروسين ، اقله عند الشرقيين . وبعض هذه العادات ظل باقياً ولكنه لم يبقَ له معنى ديني — اقله في طقوسنا الحالية — كوشاح العروس .

ولكنها اجرت بعض تعديلات في هذه العادات قضى بها توجيهها توجيهاً روحياً مسيحياً. من ذلك ان تبادل الرضى اجري امام ممثل السلطة الروحية الحقيقية ، وان جمع اليدين ، لم يعد يجري على يد الأهل او الآلهة ، بل على الانجيل ، كلام الله الحق ، وامام الكاهن ممثل المسيح ابن الله ، وان الخاتم ازدوج فأصبح خاتمين ، لان الاثنين في حقوق الزواج وتبعاته سيّان ، وان كل ما يستعمل في الزواج من ثياب وشارات اخذ يبارَك قبل استخدامه دلالة على النعمة التي هو رمزها وعربونها. ومن هنا تبريك الثياب ، والخاتمين ، والاكاليل. وبذلك « تبلّدت » اوضاع الزواج في التربة المسيحية ، واصبح لها مغزى روحي ، فدل جمع اليدين على اتحاد الزوجين ، ولبس الخاتمين على امانتهما ، وتكليلهما باكليلين على تغلبهما على الشهوة . كل هذه الرموز كانت قد رسخت في اذهان المسيحيين حوالى القرن الرابع واليها تشير كتابات الآباء .

وهناك تعديلات طرأت على الرتبة بسبب تطوّر مفهوم الخطبة والزواج من الناحية القانونية . كانت الخطبة عند الاقدمين تُعقد ، اكثر ما تُعقد ، في سنّ وظروف لا تسلم فيها دائماً اهلية الطرفين للتعاقد وحريتهما التامة . وكانت الخطبة ، اكثر ما كانت ، اقرب الى اتفاق بين اسرتين منها الى عهد بين شخصين . وبديهي ان مثل هذا الوضع يشكل خطراً على سلامة العقد ، ولاسيما بعد ان تطورت الاخلاق لصالح الاستقلال الشخصي على حساب السلطة الوالدية . ولذلك لم يعد من الحكمة ان تبقى الخطبة « عهداً لا ينحل » ولا ان

تباشر المساكنة على اساس « خطبة » ليست سلامتها فوق كل شبهة . وتلافياً لهذه الاخطار حصر معنى الخطبة « بالوعد » بزواج مقبل ، واخذت تجدّد ، بمناسبة الزفاف ، بصورة نهائية ، على انها ، لا وعد بزواج مقبل ، بل عهد دائم بزواج قائم .

وهذا التطور في مفهوم الخطبة والزفاف نتج عنه تعديل في الرتبة . فالطقوس الكاثوليكية ، على اختلافها ، التي تؤثر الامانة للواقع الروحي على التقيد بالحرف ، ادخلت على رتبة التكليل ، تجديداً لرتبة الخطبة ، فأخذ الكاهن يسأل العروسين عن رضاهما ويستمع الى جوابهما ويضم يمينيهما ويضع في اصبعيهما « خاتم زواجهما » مع تلاوة الصلوات الملائمة . وان كانت الطقوس الكاثوليكية ابقت على هذه الاشارات عينها في رتبة الخطبة ، فبديهي ان القصد منها قد تحوّل ، وترك هذا التحوّل اثراً في الاشارات ايضاً ، لما هو معلوم من ان « خاتم الخطبة » يوضع اليوم في اصبع اليمين ، « وخاتم الزواج » في اصبع الشمال .

وان نحن عدنا الآن الى كتاب توزيع الاسرار الماروني وجدنا ، في سر الزواج ، رتبتين : الاولى للخطبة ، بمعناها القانوني الحالي ؛ والثانية للتكاليل ، اي للزواج . ومن مقابلة الرتبتين ، تظهر الفروق والاشباه .

فمن ناحية الشكل او الترتيب الطقسي نلاحظ ان رتبة الخطبة اكتفت بالصلوات والاشارات الاساسية ، دون مزيد ، اما رتبة التكليل فقد وضعت ، وفقاً للتصميم العام المعتمد في رتب الاسرار ،

بصيغة «فرض» تمهيدي يليه طقس تبريك «شارة» السر، ثم وضعها .

اما من جهة الاساس او المضمون فنتبين ما يلي :

١ً – في رتبة الخطبة :

تتضمن هذه الرتبة :

– السؤال عن الرضى ، للطرفين ، وجوابهما الايجابي ،

– ثم جمع اليمينين بحضرة الكاهن ،

– ثم صلاة الكاهن التي ما زالت على الصيغة القديمة تشير الى « عهد امام الله » ، بموجب نواميسه ، يضع حداً بين « المدنسين والانقياء » ، على انه استغني فيها عما يشير الى عدم انحلال العهد ،

– تبريك الخاتمين ووضعهما ،

– تبريك الزنانير والملابس والحلى ، ووضع الزنار .

٢ً – في رتبة التكليل

تتضمن هذه الرتبة :

– الفرض التمهيدي بصلواته وطلباته وقرآته المعهودة ، وقد استغل هذا الفرض جلّ ما ذكر في الكتاب المقدس عن الزواج ، من زواج قانا ، الى وصايا بولس الرسول الى الزوجين في رسالته الى افسس (٥ : ٢٢–٢٧) ، الى جواب المسيح على سؤال الفريسيين حول الطلاق في متى (١٩ : ٣–٦) .

– الارشاد ، حول معنى السرّ ، على نحو ما يفترض في القداس من شرح بعد الانجيل .

– الكرازة والنشيد ، للجمع بين الفرض التمهيدي وطقس السر .

- تجديد طقس الخطبة ، بصورة نهائية ، بما فيه :

السؤال والجواب عن الرضى ، جمع اليدين والصلاة ، تبريك الخاتمين ووضعهما .

- طقس التكليل بما فيه :

تبريك شارة السر اي الاكليلين ،

وضع الاكاليل على كل من العروسين والصلاة عليه ،

وضع الاكليل على الاشبينين ،

نشيد الابتهاج وهو الباعوت ،

نزع الاكاليل ،

الختام .

ويعجبنا ، بعد هذا العرض ، في طقوس الكنيسة مـا فيها من جلال القدم ، وتبني كل ما كان مستساغاً اصيلاً من حاجات البشر وانتاجهم ثم تحويله الى مرماه الصحيح وينبوعه الصافي ، اي الله . فالزواج ، في تاريخ البشر ، ليس بدعة ، بل حاجة بشرية اصيلة. والكنيسة لم تتنكر له - كما فعلت بعض البدع - بل اقرته ، واعادت اليه مكانته السامية ، وحررته من طغيان الغريزة ، وكللته باكليـل النعمة . وفي ذلك دليل كاف على ان دين المسيح ، وطقوس الكنيسة ، انما هما « غاية ما يتمنى البشر » واجمل وأبهى ما اليه يبلغون .

الكهنوت

الدين دَينٌ لله على عباده . هو دين على الانسان بما هو مخلوق واعٍ وعضو في مجتمع . والعبادة ، اي التعبير عن الدين ، هي واجب فردي واجتماعي معاً . وكما ان الانسان لا يعتق من واجب العبادة الشخصية باللجوء الى العبادة الاجتماعية ، كذلك هو لا يعتق من واجب العبادة الاجتماعية لقيامه بأعمال العبادة الفَردية .

والعبادة الاجتماعية ، ككل وظيفة اجتماعية ، يقوم بها ، باسم المجتمع ، اشخاص مندوبون لها ، مكلفون بأعمالها . ولذلك ما من دين ، في تاريخ البشر ، إلا وكان فيه اشخاص مكلفون بأعمال العبادة ، مندوبون لها ، هم « الكهنة » .

هذا من الناحية التاريخية الصرف . اما من ناحية الايمان ، فالدين الحق له وجهان : هو ، من ناحية الانسان ، دَين لله ، ومن ناحية الله ، منّة على الانسان . «والخدمة» الدينية ، في الدين الحق ، لها كذلك وجهان : وجه بشري ، بما هي دين لله على عباده ، يفونه من ذواتهم ومقتنياتهم ، ووجه الهي ، بما هي منة من الله على عباده ، يستجيب بها دعاءهم من نعمه وبركاته . ومن هنا ان « الخدمة » الدينية التامة هي ، في وقت معاً ، دعاء ومنة ، طلبة وجواب .

واذا كانت الخدمة طلبة وجوابا ، «فالخادم» اي القائم بالخدمة

هو في الوقت عينه ، رافع الطلبة وحامل الجواب ، هو في الوقت عينه مندوب من الناس ،ومختار من الله ، مفوّض من الناس وصاحب سلطان من قبل الله . وبوصفه مفوّضاً من الناس ، يمثلهم في معابدهم ويتكلم باسمهم ، وبوصفه صاحب سلطان من قبل الله ، يمثل الله ايضاً وباسمه وسلطانه يتكلم ويعمل . ولكان من المحال ان يجمع بشر بين تمثيل الناس وتمثيل الله لو لم يصر ابن الله انساناً . فالصلات ، بين البشر والله ، انقطعت من جراء المعصية الاولى ، ولكن ابن الله وصل بتجسده ما انقطع ، وقام بين البشر وخالقهم « وسيطاً » اوحد ، صحيح الوكالة من الطرفين ، مقبول الطلبة ، فعّال الجواب . هو وحده يمثل بشخصه المخلوق والخالق ، لانه « اخذ صورة العبد » (فيلبي ٢ : ٧) «واعطي كل سلطان في السماء والأرض» (متى ٢٨ : ١٨) ، هو وحده ، بين الناس وباسمهم ، «قرّب في ايام بشريته ، تضرعات وتوسلات ، بصراخ شديد ودموع ، الى القادر ان يخلصه من الموت» (عبرانيين ٥ : ٧) ، وهو وحده «قادر ان يخلص على الدوام الذين يتقربون به الى الله» (عبرانيين ٧ : ٢٥) ، فهو اذن « الكاهن » بالمعنى الصحيح الفعّال .

ولكن المسيح ابن الله ، « وقد علم ان ساعته قد اتت لينتقل من هذا العالم الى الآب» (يوحنا ١٣ : ١) ، اقام رسله « كهنة العهد الجديد» «ليصنعوا ما صنع لذكره» (لوقا ٢٢ : ١٩) « وليغفروا للناس خطاياهم» (يوحنا ٢٠ : ٢٢) « باسم من له سلطان على الارض ان يغفر الخطايا» (مرقس ٢ : ١٠) «وليعلموا الأمم ويعمدوهم باسم الآب والابن والروح

القدس »(متى ٢٨ : ١٩). وبذلك يجتمع لكهنوتهم ما امتاز به كهنوته، لا الانتداب من الناس فحسب بل السلطان من الله لأنه هو «اختارهم وأرسلهم »(يوحنا ٦ : ١٥).

والرسل مثل معلمهم عملوا . فعندما شعروا « بأن وقت الانحلال قد اقترب »(٢ : تيموتاوس ٤ : ٦) منحوا تلامذتهم « موهبة الله بوضع اليد» (٢ تيموتاوس ١ : ٦)، فأمنوا بذلك انتقال الكهنوت الصحيح من «ابن الله » الى « كهنة الكنيسة » (يعقوب ٥ : ١٤) ، وبذلك تسنى للبشر ، على ممر الأجيال، ان «يقتربوا الى الله على يد من هو قادر ان يخلص على الدوام ».

ولكن الرسل ، لما تكاثرت عليهم مهـــام « الخدمة اليومية » في الكنيسة الناشئة، وكيلا تصرفهم هذه المهام عن «المواظبة على الصلاة وخدمة الكلمة » رأوا ، علاوة على ذلك ، ان يختاروا ، من بين الاخوة ، رجالاً « يشهد لهم بالفضل» «وأقاموهم على هذه الحاجة ، وصلّوا عليهم ووضعوا عليهم الأيدي » (اعمال ٦ : ١–٧) ، فكان للكنيسة «شمامستها» ، اي معاونو كهنتها في الخدمة اليومية .

وكان ، بعد موت الرسل وبمقدار نموّ المجتمع المسيحي ، ان تكاثرت مهام الخدمة ، وتفرّعت الحاجـــات. فرأت الكنيسة ان تنسج على منوال الرسل ، فتقيم رتباً جديدة لسد الحاجات الجديدة. وكان ان الحقت هذه الرتب ، التي فرضتها خـــدمة العبادة وخدمة المجتمع ، برتبة الكهنوت ، بمثابة معاونة في الخدمة الكهنوتية وتهيئة لقبول سر الكهنوت ، حتى اذا ما انقضت بضعة اجيال واستقر

المجتمع المسيحي ، استقرّ كذلك نظام سرّ الكهنوت « بدرجاته » ، على ما هو عليه اليوم في مختلف الطقوس .

وعليه فالكهنوت سرّ يخول قابله سلطاناً من الله على يد الكنيسة، لتقدمة الذبيحة ومنح الأسرار والتبشير بالانجيل وسياسة النفوس ، اي كافة اعمال « الخدمة الدينية » في المجتمع المسيحي .

والكهنوت درجات ، بعضها من وضع الهي ، كالحبرية والقسوسية والشماسية ، وبعضها (وتسمى عادة الدرجات الصغرى) من وضع كنسي وهي رتبة الشدياق والقارىء والمرتل . وكما ان الوظائف ، في المجتمع ، تتميز بالنسبة الى الأعمال ، كذلك تحدّد الدرجات ، في سر الكهنوت ، بالنسبة الى « الخدم » الدينية . فالحبرية هي ملء الكهنوت ، لأنها تشمل كل الخدم وتخول تمام السلطان الروحي ، بما فيه سلطان التقديس والتعليم والولاية ، وتمتاز بأن لصاحبها وحده ان يمنح سرّ الكهنوت . والقسوسية ، اي درجة الكهنة ، هي في الأصل لمعاونة الحبر في الخدمة الروحية ، ولذلك فهي تحدد بسلطان تقدمة الذبيحة ومنح الاسرار تحت ولاية الاسقف. والشماسية وهي في الاصل لمعاونة الحبر في « الخدمة اليومية » تحدّد بالنسبة الى معاونة الاسقف معاونة مادية في كافة مهماته .

اما الدرجات الصغرى ، فقد رتبت ، على القياس عينه ، للقيام ببعض الاعمال. فالشدياق هو دون الشماس في معاونة الرأس ، والمرتل يقوم بالترتيل ، والقارىء يقوم بالقراءة .

وسر الكهنوت يمنح عامة « بوضع اليد » مشفوعاً بدعاء ، لما

تتضمنه هذه الاشارة من تعبير عن تخويل سلطان وتكليف بمهمة. وفي منح درجتي القسوسية والحبرية يمسح الطالب بالميرون المقدس لأن المسح بالزيت يعني منح القوة – قوة الروح القدس – وطبع وسم في النفس – ووسم الكهنوت لا يمحى – لأن هاتين الدرجتين تثبتان قابلهما في حالة مكرسة الى الابد، فيصبح «موقوفاً» على خدمة الله طول العمر.

هذه هي مقوّمات سر الكهنوت من حيث الجوهر والمعنى، اما من حيث الشكل والطقس، ففي رتبة الكهنوت او «وضع اليد» – وهذا معنى لفظة شرطونية اليونانية الأصل – ما في غيرها من رتب الاسرار من اجزاء مع مراعاة اختلاف الطقوس والدرجات.

وفي طقسنا الماروني، يتبيَّن الناظر اليها، برغم ما يعترضه من تطويل وتكرار، الاجزاء التالية:

١ – الرتبة الاستعدادية وهي مؤلفة من «فرض» بيعي يتضمن اناشيد وطلبات وقراءات، على نحو ما ورد في سائر رتب الاسرار.

٢ – رتبة منح الدرجة، ودرجات السر تمنح «بوضع اليد» اي يد الاسقف مع دعاء به تستنزل نعمة الله على المدعو لتؤهله الى القيام بالخدمة التي انتدب اليها. ويضاف اليها عند الاقتضاء المسح بزيت الميرون المقدس. وتختم باعلان رسم المدعو على البيعة.

٣ – رتبة تقليد شارة الدرجة والتمرين على عملها وذلك بتوشيح الموسوم بلباس درجته وتكليفه القيام بأعمالها.

وفي سر الكهنوت، كما في سر العماد، يقدم الطالب الى الاسقف

كاهن مسؤول ، هو كالعراب بالنسبة الى المعمَّد . يقود خطاه في رتبته الجديدة ويدربه عليها . وفي رتبة الكهنوت ، كما في سائر رتب الاسرار ، يحاط العمل الفعَّال بستار من الخفاء وهالة من الرهبة ، دلالة على قدسيته . على ان تقليد شارة الدرجة يعلن على الكنيسة فعلاً ما تم على يد الاسقف سراً ، كما ان التمرين على عمل الدرجة لاول مرة بحضرة الاسقف والكنيسة يطبع عمل الموسوم بطابع الشرعية . وليس ادعى الى الخشوع من تسليم جسد الرب الى الكاهن الجديد ، اذ يضعه الاسقف على رأسه وكأني به يكله اليه ويحمله تبعته .

وفي رتبة الكهنوت يتضح بأجلى بيان ما بدا في سائر رتب الاسرار من علاقة بين الرتبة الطقسية والحياة الروحيـــة . ففي رتب الاسرار جميعها تحقيق للمبدأ القائل بأن الاسرار تفعل ما تعني . وكما ان العماد هو رتبة ادخال الانسان الى الكنيسة ، قـــالباً وروحاً ، وسر الاوخارستيا هو رتبة وليمة الكنيسة ، وسر التوبة رتبة المصالحة مع الكنيسة ، كذلك رتبة سر الكهنوت هي رتبة تخويل السلطان على جسد الرب ، اي جسده الاوخارستي المصنوع في الذبيحة ، وجسده الروحي الذي هو جماعة المسيحيين .

والكنيسة ، التي رسمها ابن الله المتجسد ، ان هي الا امتداد حياته عبر الزمان والمكان ، تؤمن اتصال البشر بابن الله في وحدة الهيئة الاجتماعية ، ومن خلالها ، في وحدة جسد المسيح الحي . والى هذه الوحدة وهذا الاتصال ترمز رتب اسرارها ، لا رمزاً مصطنعاً اجوف ، بل رمزاً حقيقياً طافحاً بغزارة النعمة .

مراجع

اليك ، علاوة على النصوص الطقسية و « المنائر » والمصادر التي أشير اليها في الحواشي ، اهم المراجع في طقوس الاسرار :

ASSEMANI, *Codex liturgicus,* Paris 1752-1754

BRIGHTMAN, *Liturgies Eastern and Western,* Oxford 1896

DENZINGER, *Ritus Orientalium,* Wirceburgi 1863-1864

RENAUDOT, *Liturgarum Orientalium collectio,* Paris 1716

BAUMSTARK, *Liturgie comparée,* Chevetogne 1939

DIB, *La liturgie maronite,* Paris 1919

DUCHESNE, *Origines du culte chrétien,* Paris 1925

HANSSENS, *Institutiones liturgicae de ritibus orientalibus,* Rome 1930

MOLIEN, *Liturgie des Sacrements,* 1948

RAHMANI, *Liturgies orientales et occidentales,* Beyrouih 1929

RAES, *Introductio in liturgiam orientalem,* Rome 1947

Dict. de Théologie Catholique, art. Maronites, Orientale (Messe) , Présanctifiés

Dict. d'arch. chrétienne et de liturgie, art. Pénitence, Pénitenciers, Pénitentiels, Mariage.

FONTI, *Série II, Fascicolo XXVII, Disciplina antiochena antica,* Rome 1941

Lex Orandi, collection publiée sous la direction du Centre de Pastorale Liturgique.

La Maison-Dieu, Cahiers de Pastorale Liturgique.

فهرس

	صفحة
العماد	٣
التثبيت	٢٣
الاوخارستيا	٢٩
التوبة	٥٦
مسحة المرضى	٦٨
الزواج	٧٦
الكهنوت	٨٨
مراجع	٩٦

انجزت « المطبعة الكاثوليكية »
طبع هذا الكتاب ، ليلة احد
العنصرة ، ٦ حزيران سنة ١٩٥٤

لمجد الله وخدمة المؤمنين

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الخوري ميخائيل ضوميط

شرح
طقوس الأسرار

منشورات «الرابطة الكهنوتية»

بيروت